نحو أدب إسلامي حقيقي

٢- الكتابة

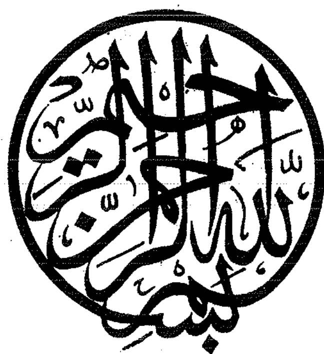
كتابات

هاني فحص



دار البلاغة

كتابات


بسم الله الرحمن الرحيم

نحو أدب إسلامي حقيقي
٢ـ الكتابة

كتابات

هاني فحص

دار البلاغة



ت ٢١٧٤٢٥ - ٨٣٤٢٦٥
تلكس ٢٠٦٨٠١ - ٢١٦٦٥
حارة حريك - مقابل البنك الفرنسي
بيروت - لبنان

الإهداء :

ارتديتها وهممت بالسفر
ارتـدتني وسبقتني ، وصلت قبلي . . أعادتني استعـادتني استعدتها فأسعدتني .
طوقتني بإحـدى ضفيرتي شعرها وحلت الأخـرى . . .
إليها إلى قريتي المنوَّرة ـ جبشيت
إليها وإلى التي كابرت أوجاعهـا لتمكن لوجـع الحبر أن يثمر حرفاً إلى أهلي ، إلى زوجتي وفاءً واعترافاً وعرفاناً .

هاني

« فإن الكلام إنما يُراد به تصوير ما يتضمنه باطن المخاطِب في باطن المخاطب ليصير مثله ، فإذا عجز المخاطِب عن مسِّ باطن المخاطَب بباطنه مسَّ الخاتم الشمع فيجعله مثل نفسه اتخذ بين الباطنين سفيراً من الظاهرين ، فكلم بالصوت أو كتب أو أشار وإذا كان المخاطب روحاً لا حاجب بينه وبين الروح اطلع عليه اطلاع الشمس على الماء الصافي فانتقش منه ، لكن المنتقش في الروح من شأنه أن يسيح إلى الحسِّ الباطن إذا كان قوياً » .

أبو نصر الفارابي

مقدمة الكتاب

في مقدمة قصيرة لكتاب سابق لي صدر السنة الماضية عن مؤسسة الوفاء - ببيروت » بعنوان « تفاصيل* القلب » قلت : « إني أحاول جعل النص الأدبي متماثلاً مع حركة المجتمع الإسلامي بكل تنوعها وعلاقاتها الداخلية والقيم التي تحكمها والعواطف التي تسودها » .

هذا الطموح لم يرض بعض المثقفين اللبنانيين ، خاصة أولئك الذين طلعوا فجأة من الصفحة الثقافية في الجريدة اليومية إلى رؤية كونية لا جذور لها ولا تاريخ ولا أفق ولا غاية تحكمها ولا ضوابط . . . وقد عرفوا بسرعة تنقلهم من موقع سياسي إلى موقع آخر ، أو لا موقع أو من هجومية سياسية فاقعة إلى عدمية أفقع ، ومن استغراق في التلمذة على بعض الأسماء الكبار ، حد التملق والتبعية والتبشير

والترويج ، إلى إعلان النِّدية بدون أهلية ، واللجوء إلى السباب لإثبات هذه الأهلية .

ومع كل إنتقال يحدث ولا تكون لنا فيه يد أو إهتمام ولا بأسبابه معرفة ، تتكون لدى المنتقل قناعات قاطعة ـ كما الحتمية التاريخية ـ يحاول أن يلزمنا بها دون أن يكون مالكاً لأي مبرر فكري أو لغوي أو عسكري .

هم قرأوا الفوضويين من باكونين وبليخانوف إلى برودون ووجدوا في فوضويتهم ضالتهم ، واصطفوا يساراً ، وعندما فاجأهم الإنتظام الشيوعي بتطلبات كالإنضباط الحزبي والسياسي وحفظ الأمثولات والتكاليف التي قد تصل بسبب خصوصية الوضع اللبناني ، إلى حمل البندقية والتعرض للسهر أو القتال أو القتل ، وجدوا أن مزاجهم الفوضوي يتنافى . . . وجدوا ستالين وسوسلوف وغريشكو وأوستينوف بدل برودون ، فهربوا يميناً ، لم يتعلموا من اليسار إلا الشراسة في المصادرة على الآخرين والإدعاء بملكية الحقيقة (1) .

إني هنا أدعو الجيل المسلم الذي أثبت جدارته السياسية والثقافية والنضالية والمسلكية ، أن يتوفر بجدية على ملء مناطق الفراغ النسبي التي كانوا يتسللون منها

ويستريحون فيها ويسترخون كما لو كانت مستعمرات ورثوها عن أجدادهم وقرروا أن لا يسمحوا لأحد بدخولها إلا بإذن مسبق وطبق شروط يمليها المزاج المتغلب المتقلب . أقول لهذا الجيل : إن جمالية التعبير في قرآننا ومجمل تراثنا الذي يمتح من هذا الكتاب الإلهي العظيم ليست ترفاً شكلياً مضافاً إلى مضمون ، إنها جزء المضمون وجزء الهم الرسالي .

ومن هنا فالإعجاز البلاغي هو عمود الإعجاز القرآني . . ماذا يعني ذلك ؟

لعله يعني - والله أعلم - أن القرآن يراعي ثابتاً بشرياً غير طارىء أو مؤقت ، بل تكويني ، هو التطلب الفني الجمالي ، الذي يطابق الفطرة ، ويسقي الأرض أمام المفاهيم العقيدية والتشريعية .

وإذا ما كنا قرآنيين فلا بد لنا من مراعاة هذا الثابت كشرط للتواصل .

ألا تبدو اللغة العربية ، وكأنها شرط إسلامي ؟ شرط الإسلام ؟ . . وإن لم يكن إشتراطها صريحاً إلا في حدود ، فإنه من الواضح أنها مصير الموحدين .

أليست الحكمة في ذلك هي تكوين سوية لغوية واحدة

لأمـة واحدة ، وذوق واحـد ، يبقى حاضـراً مفتوحـاً أمـام التعدد اللغوي والتنوع ليغتني به ويثمر ؟

وبالتالي ، أليس ذلك كله تأكيداً على اللغة ، لا بما هي أداة نقل وحسب ، بل بما هي أداة شرطيـة لبناء حضـاري شامل وجميل ؟

إني في هـذه الأوراق ، ثانيـة ، أحـاول أن أكتب أدبـاً يسعى إلى الخلاص من وحدة السياق الشكلي ، القسرية ، والهشة ، باتجاه وحدة سياق داخلي طوعية وصلبة ، متطابقاً في ذلك ، أو طامحاً إلى التطابق والتماثل مع القرآن ، داعياً ـ حسب القـرآن الكريم ـ إلى إعـادة لملامـح البنـاء النـظري النقدي لنوعنـا الأدبي المطلوب والمـلائم ، مشككاً في قـدرة الأنـواع الغربيـة المتعارفـة عـلى الإستجـابـة لتطلبـاتنا في التعبير ، المحكومـة بضوابط فنيـة وأخلاقيـة رساليـة متميزة نوعياً . . مشككاً في قدرة الأنواع الغربية أيضاً على استيعاب همومنا المتنـوعة وإصـرارنا ـ بـل تكليفنا الإلهي ـ عـلى عدم الإنفصـال عن سويـة الأمة في إنتـاجنا الفني ، بـالإجتـزاء وافتعال المسافات الوهمية .

على أن لا يفهم ذلك ، ولا يعمل به ، آلياً ، مما يودي بنـا إلى مـا أودى إليـه الإلتـزام الإلـزامي ، إلى الإبتـذال

الشيوعي المقيت والتقييدي . . . الدعاوي . .

إننا لا نمالىء الأمة في الفترة التي ما تزال على جلدها ـ لا في عمقها ـ بقع من آثار الشرق والغرب .

وتميزنا النسبي عن الحالة العامة وظيفي ، ومرشح للتضيق باستمرار ، طبقاً لإرتفاع مستوى الوعي العام لدى الأمة ، هذا الوعي الذي يتناسب طردياً مع تمايز الأمة ـ فكراً وسلوكاً ـ عن الآخرين . . الشرق والغرب . . أو الغرب بلحاظ وحدة الأصل .

على أن عدم إنفصالنا عن الأمة يبقى مضموناً بالعقيدة التي هي الإطار الوحدوي التوحيدي الصلب اللطيف في آن . فلا يتحول أي مستوى من الإنفصال النسبي إلى انفصال بنيوي . تظل عوامل وقوانين الإتصال والتواصل هي الحاكمة . وفي النهاية ، فقد أخذت على نفسي أن أثير شهية الجيل الإسلامي ، مواهبه وقدراته وطموحاته ، واستنفر همته من أجل إستعادة نظرية لمفاهمنا النقدية في المجال الأدبي . . . هذا ما كنت معنياً بالإشارة إليه مراراً ، ومرة لم أكتف بالإشارة ، بل حاولت الإسهام عملياً في كتاب لي تحت عنوان « نحو أدب إسلامي حقيقي ـ المسرح ـ دار البلاغة / بيروت / ١٩٨٦ م » .

على أني في كتابي « أوراق من دفتر الولد العاملي ـ دار الكلمة ـ بيروت ـ ١٩٨٠ م » و« تفاصيل القلب » وهذا الكتاب، أردت أن أقول بأني لا أكتفي بالتنظير النقدي والتحريض ، بل أحاول تقديم نماذج أتوخى أن تكون تجارب تعليمية ، بالإضافة إلى أنني أتبناها كإنتاج خاص يرضيني ويرويني . .

بهذه الصراحة وهذا التواضع غير الكاذب ، آمل أن يتعلم بها ومنها جيلنا الإسلامي الشاب ويتجاوزها إلى مستوى من الإنتاج الجميل يضارع به المستوى النضالي الخارق الذي بلغه وتجاوز به ، لا جيلنا وحسب ، بل طموحات هذا الجيل .

أسأل الله تعالى أن يوفقني لأن أكون مسهماً ولو باليسير في إفتتاح عهد جديد من الكتابة الأدبية الإسلامية . ليس هو افتتاحاً في الحقيقة ، بقدر ما هو إقلاع في بحر الإسلام الواسع ، بعدما توقفت المراكب ريثما تنجلي العاصفة ويذهب الزبد .

« وقيل يا أرض إبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

لقد استوت سفينتنا على جوديها .
فهلا استوينا عليها . . . ؟
والحمد لله رب العالمين .

هاني فحص
جبشيت في
١ / ٣ / ١٩٨٦

﴿ واترك البحر رهواً ﴾ الدخان آية ٢٤ .

« الكلي مفتقر إلى الجزئي لا لأن يصير بديمومته محفوظاً بل لأن يصير بتوسطه موجوداً والجزئي مفتقر إلى الكلي لا لأن يصير بتوسطه موجوداً بل لأن يصير بديمومته محفوظاً » .

ـ أبو الحسن العامري ـ

« فإن إعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد ، وإن إعتبرت عالم الوجود فأنت نازل ، تعرف بالنزول أن ليس هذا ذاك ، وتعرف بالصعود أن هذا هذا « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

أبو نصر الفارابي

مقدمة الكتابة

آت من البحر
ذاهب إلى البحر

عندما أكتب ما أسميه أدباً ، يكون هـاجسي أن أودع أوراقي ما يتيسر لي من أحوالي .

من أين يأتي الحال إلى ذي الحال ؟

يأتي الحال من الخارج ، من العام ، من الكـلي ، من البحر . فإن كنت ، يا رعاك الله ، موحداً ، قد هداك الله وكشف عنك غـطاءك . . تمـاهي الخارج مع الداخل ،.العام مع الخاص ، الكلي مع الجزئي . . . والبحر مع المبحر .

وإن كنت ملحـداً ، أو مشركـاً ، في قلبـك مـرض ، فزادك الله مرضاً ، عانيت ، لأنك ملزم بأن تحتفظ بالخارج في الخـارج ،على مسـافة منـك ، تـطول أو تقصـر، وتبقى مسافة .

تغلق أبوابك ومسامَّك ، يأتي الواقع ، البحر إليـك ،

صحبة الحزب أو المؤسسة أو الطبقة أو القبيلة أو فخذ القبيلة أو بطنها أو الشرطي ، يطرق الباب ، تستمهله ريثما تحكم رباط عنقك وحذائك ، وتقابله في الخارج ، تصافحه أو تعانقه وأنتما منفصلان ، بينكما برزخ لا تبغيان ، تعاني فيرشدك الحزب إلى كتاب أو بيان سياسي لتحل معضلتك .

أما إن كنت موحداً ، فإنك لا بد أن تتوحد ، فلا تعاني ، تشرع أبوابك وعينيك ورئتيك ، ليل نهار ، صيف شتاء ، تشرعها ، يأتي الواقع ، الخارج ، يدخل بدون وجل أو تردد أو حرج ، يختار مقعده إلى جوارك ، في أي زاوية ، معتمة أو مضيئة ، أو على الشرفة ، وربما ارتدى منامتك ، واستلقى على فراشك، وعاتبته طفلتك الصغيرة اللثغاء مخمنة أنه أنت . . . وربما عبث بمخدتك ، مسح عنها بقايا كابوس ، رش عليها حفنة معطرة من دم صديقك الشهيد ، وشيئاً من الملح ، أو حفنة من تراب الوطن ، أو أشار إلى ما تبقى من وقع أقدام حلم رشيق .

تكتشف أنه من أهل البيت ، وهو يكتشف ذلك ، عندئذٍ تدرك لماذا لم يؤد تحية الصباح ؟ فالكلفة مرفوعة . .

إن كنت موحداً، أتى الخارج من الداخل ، قل لا يأتي ولا يذهب ، إنه مقيم ، لفرط حضوره وكثافة هذا

الحضـور ، تتوهم أنـه يذهب ويـأتي وإذا ما سـأل أحد عنك ، انتصبتَ أمامه « فإذا فرغت فـانصب » . . أتيته من الخارج الداخـل « يولـج الليل في النهـار ويولـج النهـار في الليل » . . أتيت بدون عناء أو تكلف ، بدون فواصل .

تـأتي أنت . . يـأتي نصـك الأدبي خـلاصـة مـركـزة للمجموع ، تحمل ملامحه ولها ملامحها . .

لماذا تتعامل مع نصوصك كما لو كانت أولادك ؟

إني أوثر أن أحطم قلمي بأسناني ، والثلاث أصابعي التي تمسك به ، وأن أطفىء الشمعة الوحيدة المتبقية ، التي أكتب على ضوئها في ليالي الغارات الجويـة على مـدن جميلة تقع في الإتجاه المعاكس لتل أبيب ، وأن أمزق ثيابي ، إذا ما ركب أحـد غيَّة أو رأسـه ، من قـارىء نـاشف أو حـاكم يابس ، وقدم لي خارطة هندسية ، محسوبة مسافاتها ، بدقة آليـة مفرطـة ، للأرض والـوطن والتاريـخ وحقول القمـح والقـطن والتبغ والنفط والـزهور البـرية والأهـل والمستقبـل وخـروج اليهود من جبـل عـامـل ودخـول السـوفيـات إلى أفغـانستـان ومـوتهم اليـومي فيهـا ونقـل جثث المـارينـز بـالـطائـرات . . وكـل مفـاصـل الحـزن والغضب والأمـل والإبداع . . . وعلى هامشها ، وفي مناطق الفراغ أو الحدود

منها ، فسحات مرسومة بدون عناية . أو تـأن ، ومعلمة بالدبابيس ، مخصصة للعواطف والأحلام والمخاوف ، وقال لي : أكتب أدبـاً . . إملأ الإستمـارة ، ودع أسفلها سـطراً فارغاً لضابط الأمن المختص .

أقول : وأين الحال ؟ أين حالي ؟ أيني ؟

يقول : ليس لك حـال دون حال الأمـة أو الشعب أو القطر أو الطبقة أو العشيرة .

أقول : إنه تعسف في إستعمال الحق . . إن حالي تأتي من هناك ، من ذاك المدى الوسيع ، ولكنها تأتيني أنا ، طبق شروط تكوينية في داخلي ، لا تأتي غيري ، تأتيه حـاله من بابها . . إن حالي تشاكلني ولا تمحوني . . . وأنا . : . . أنـا الذي يختار اللحـظة والموعـد ، لحظة الـدخول في الحـال ، وموعد قطف الكلمات أو الأجراس أو التكوينات اللونية .

أنـا الذي أختـار الحيِّز ، المـوقف ، خط الطول وخط العرض ، والعمق ، والقيمة ، والظل ، والإمتداد .

عندما تأتيني حالي وتعتريني .

كيف تكون الحال فرضاً ؟

إنها تصبـحِ سجناً ، ويكف الـوعي أن يكون وعياً ،

يمسي حذقاً في إستخدام المكاييل والموازين .

أنـا الذي يـرى ، لماذا تغلق بكفـك الغليظة الخشنـة حدقتي ؟ أنا الذي يقدر الكثافات . . يختار حبره، أنا الذي يعطي لهذا الدم النازف من الخاصرة لونه ، ولذاك الطالـع من خد الشمس درجة سخونته ، ولهذا الحلم شكله وزمانه واحتمالاته ولتلك المسافة سرَّها .

عـلى معلِّم الصبيـان أن يلزم الصبيـان بحفظ جـدول الضرب عن ظهر قلب ، وأن يعـاقبهم إذا لم يحفظوا ، وأن يفتش على نظافة دفاترهم وأظافرهم ، ولكن ماذا يفعل إذا لم يكن لدي دفتر أو أظافر ؟

قلتم لي لا تدسس أنفك فيما يعني جارك
لكني أسألكم أن تعطوني أنفي
وجهي في مرآتي مجدوع الأنفـ » .

وعلى الشرطي أن يقف بـانتباه عنـد تقاطعـات الطرق ويضبط حركة السير . . ولكن ماذا يفعل إذا كان سيده قد أمر جميع النـاس والأشياء والحـركات والأنفـاس أن تتوقـف حتى يمر ؟ هذا شأني .

وحذارِ من أن يتسلل الشرطي إلى صفحـات دفاتـري

وسـطورهـا . ليست كلمـاتي وصـوري وألـواني مستعـدة للخضوع لحركة يديه ومزاجـه . . . وإلا فإنها سـوف تغادر الـدفتر ، فتبقى صـورتـه وصفارته وهـراوتـه تحتـل كـل الصفحات ولا يقرؤ ها إلا العداؤ ن وراكبو الدّراجات . . . وأنا أستقيل ، أصير خبازاً يتقيد بأوامر مديرية التمـوين في قياس الأرغفة أو يعـطي رشوة ويفعـل غشاً . . . أو حـذّاءً يستخدم قوالب مفصلة لأحذية الجنود يحملونها على ظهورهم عنـد الإنسحاب من وجـه العـدو . مـا عـلى النـظام ، من الدستور إلى قوانين السير والمرور والجنسية وما على القاضي أو صـاحب الورشـة ، إلا أن يكـون عـادلاً وأمينـاً وذواقـاً وأليفاً ، يتقن لغته وقلبه ، يعترف بخطأه ويصحـحه ويعتذر إلى العمـال ، ولا يفرط بحبـة تراب أو حلم أو نهر ، حتى يكون له حضوره الطوعي في دفاتري .

أوراق الأديب مجلي أحواله .

أتته كما لو كانت فجاءة ولم تكن فجاءة .

كما لو كانت صدفة وليست صدفة .

كدفقة الحنان التي تُرعش جسد أم مرضـع رؤ وم فيدر ثدياها . . إبان ظهيرة حزيرانية ، في حقل حنطة مخصب ، إذ تمد الأم ناظـرها عـلى مدى القمـح ، فترى إلى الـذهب الصاعد ، ينجـدل بحبال الشمس النـازلة المنهمـرة ضفائـر

ضفائر ، وتتذكر رضيعها المقمَّط في السرير الخشبي ، يلاحق بطرف عينه هرة تداعب جراءها ثم تستسلم لها فتنهال الجراء على أثداء الهرة الأم رضاعة ويدفق الحليب . يتلفت الطفل يمنة ويسرة ، فلا يرى أمه ، ويبكي لحظة تكون الأم قد مسحت منجلها بطرف كمها ، وحلت عقدة حرجها وتأهبت للعودة .

الفلاحون يوقتون بالشمس والظل وانعقاد الزهر والمرضعات بحالة تعتري أجسادهن آناء الليل والنهار :
أوراق الكاتب أحواله .

إقتداره وطموحه واختياره .
أتته حرة كنهر ، بضفتين .
« أفهمت عذاب النهر إذا اغتربت عنه الشطآن ؟
أفهمتِ عذابي هل أضحك ؟
أفهمتِ عذابي هل أبكي ؟ »

هل يبقى النهر نهراً بدون ضفتين ؟
نهر . . كلما شارفته تخيلت أنه انبثق لتوه .

« بيني وبين الفرات
لغة . . . بيننا حوار

حضنته الكراكي ، طافت به كالشراع

بيننا . . وافراتاه كن لي جسرا
وكن لي قناع » .

نهر قد اختار مجراه بوعي باطن ، غير مفارق ، كوني ، مغرق في خفائه حتى الإبهام وساطع كنهار صيفي . . تضبط ضفتاه إيقاعه حتى لا ينفلت ، وتضمنان وصوله إلى المقصد الذي في خاطر النبع ، إلى شفة عطشى أو شجرة ظمأى أو قصيدة ، أو بحر تتسع فيه مساحة الحرية وتبقى مضبوطة بالشطآن البعيدة الحاضرة في ذاكرة الربان والبحارة « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

إن ذلك الواقف على حافة البحر ، يقيس البحر على ذاكرته ، لا يحتمل للبحر شاطئاً ، يمعن في الإختيار إختياراً حتى ينفي الإختيار ، وتتحول الحرية من مدى مفتوح إلى دهليز دائري ، ومن فضاء مشمس إلى رتابة مرطوبة دبقة .

والآخر ، على عنق البحر ، يخيط السماء قبعة ، وينقل رمال الشاطىء الآخر وصخوره وزبده ، يطفىء الزبد قبل أوان انطفائه ، يقمع الموج ، ويحول البحر إلى ساقية لاستحمامه ، إلى كأس ، إلى إبريق نحاسي ، ثقيل غليظ ، لا يشاكل ماءه . . طويل العنق ، ضيق القلب .

أنا أتيت البحرِ ، هـذا توقيعـه في دفتري ، أتـاني البحر لمـا أتيتـه ، هذه عيني مشبـوكة بـطرف عباءتـه ، أباح لي مـاءه أبحت له جسدي ، بللني واشتقت أن أبلله .

أنـا في البحر ، لا أخشى فسـاداً أو دنساً « فـلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . توحدت مع البحر ، تـوحدت في البحر ، أعرف خارطة جسدي .

قرأت ذاكرة البحر وضميره ، أصبحت ملحاً في خاطر البحر ، غسل البحر ضميري ، قال البحر راضياً ممازحاً : أين روحـك أيهـا النـورس الشقي الأليف ؟ قلت : هـذا جسدي . . قال : هيٍ هو وهو هي هو إياها وهي إياه « إن لك منك غطاء ـ فضلاً عن لباسك ـ من البْدن ، فاجهد أن تـرفع الحجـاب فتجرد ، فحينئـذٍ تلحق ، فـلا تُسـأل عـما تباشره ، فإن أَلِمت فويل لك وإن سلمت فطوبى لك وحسن مآب ، وأنت في بدنك ، كأنك لست في بدنك ، كأنك في صقع الملكوت ، فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاتخذ لك عند الحق عهداً إلى أن تـأتيه فرداً » .

سالت من عيني قطرات بيض ، صارت كلماتٍ سوداً وبيضاً وخضراً ومن كـل الألوان ، فيهـا أدعية وضراعات

وتوبات وبشائر ولعنات وإحباطات وفقراء ورجال مفتولو السواعد وواعدون ونساء حوامل وأخريات صبايا يتشحن شالات منمنمة وينضحن عفة وكبرياء ، وفيها ذئاب ورجال ونساء ذئاب ، فيها ملح وخل وزعفران ولذع ووخز وبرودة واحتمالات خصب وجدب ، وأصوات ونداءات لا تنقطع ، واسفنج ومرجان وطحلب وسمك صغير وحيتان وقرش . عصارات حزن ووجع وورود وندى وأشواك .

***

أقول للسيد النظام : حسناً أنا في إنتظارك تحت شجرة العدل فإن أتيت قدمت لك كأساً من نقيع اللغة تبرد به قلبك . . وإن لم تأت فسوف أشهر حالي في وجهك . . سوف أقذف في وجهك بكل أوجاع الأرض وعرق الفقراء وشفاه الجوعى وأحلام الشهداء وقاع البحر ومخاوف النهر . . فاذهب وتدبر أمرك .

***

تأتيني الحال من حال مفارقة ، ولكنها عندما تأتيني توقظني وأكتشف أني كنت واقعاً في خداع بصر وبصيرة « ورفعنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . . . فالحال المصدر ليست مفارقة مفارقة ؛ إنها مفارقة مساوقة أو مطابقة ، تحتاج إلى يقظة وإمساك باللحظة الفاصلة الواصلة

بين الليل والنهار .

« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

إنها حال أوسع من حالك ، تتضمنها ، تؤكدها لا تلغيها .

هذا ليس استثناء للوعي ولا استلاباً للذات ، إنه وعي مطابق للذات ، وعي غير متعين ، ضمني ومكثَّف ، إنه وعي لا تعيه ، لأن المسافة قائمة « ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى » . . . المسافة قائمة ولكنها لطيفة كما لو لم تكن « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . . . رذاذ هي المسافة وليست هواء ، والوعي لا تعيه إلا إذا خرجت من الحال إلى سطحها ، من الصورة إلى إطارها ، من الوهج إلى النار ، من التواصل مع مياه البحر إلى حساب المسافة بين الأمواج . . . هل هناك مسافة بين الأمواج ؟ . . وإلى حساب المد والجزر ، هل يمكن الحساب ؟

إنه وعي تخامره سورة الرحمن وسورة الإسراء ، تجريان في مفاصله . . . لن ترى لهما أثراً إمَّا كنت ممن يقفون عند علامات الطرق . . تجدهما إن أسلمت حالك للحال .

***

كأن وراء هذا الكلام أطروحة أو مشروعا ما ؟

بلى . . هناك مشروع أدب إسلامي ، لا بد أن يكون لأن هناك نهوضاً إسلامياً عاماً ، فلا بد أن يكون شاملاً .

أدب إسلامي ؟ إذن له مميزاته ؟

بالطبع له مميزاته . فهو أدب توحيدي وحدوي ، ينطلق من توحيد الخالق ووحدانيته ويتابع تجليات هذه الوحدانية في المخلوق ، في الكون وفي الإنسان وفي حركة الأنبياء ، في صراع النور والظلام ، الحق والباطل ، وفي حركة التاريخ .

إنساني منحاز للعدل ، تجري في عروقه دماء المستضعفين وعرقهم وتبزع منه أوجاعهم وآمالهم وتفوح منه رائحة التراب . .

درامي ، دون شك ، لا يتوخى اليسر ولا يحترف التعقيد ، يجانب التبسيط والمباشرة والإختزال والمجانية ، ولكنه غير تلفيقي بل محكوم بسياق يمتح من القرآن .

وهو بالتالي ، ليس اجتراحاً . . ليس تأسيساً ، إنه استمرار ولكنه صعب كما لو كان تأسيساً . . . هو تواصل مع الإنتاج « التراث » الذي انقطعنا عنه أو قطعنا

فانقطعنا . .

لا يبدأ من حيث انتهى ذلك الإنتاج ، فهناك منطقة فراغ طويلة عريضة وعميقة ، لا بد من ملئها ، بشرط رؤيتها نقدياً حتى نحدد نقطة البداية ، ونأخذ بالإضافة كماً ونوعاً ، وإلا أصبحنا عبئاً على التراث ، حجة على قصوره ، وذريعة لإبقائه في حدود دلالاته الماضوية ، هامشاً وحاشية ومصدراً تبريرياً ، لا يبرر نفسه ، يبرر غيره ، وربما إستخدم ضد نفسه .

هذا الأدب ليكون ، لا بد أن نستعيد لغتنا ، مجلوَّة مشرقة . لقد أصبحت لغتنا مأمور بريد ، واسطة ، طريقاً لا موضوعية لها ولا حيثية . وإن بقيت كذلك فإنها سوف تتيبس ولا تصل ولا توصل . . . لا بد أن تعود اللغة لغة ، لا وعاءً محايداً ، بل وعاء يشاكل محتواه ويخامره لا يشف عنه فحسب ، يكون جزءه ، وإلا بقينا ذاهبين في التخفف منها إلى حد الإشارة والإيماءة . وعندئذ يصبح القرآن نصاً سياسياً ، ضيفاً غريباً قادماً من مجاهل بعيدة وغامضة . . . ألم يصل القرآن نتيجة الوهن اللغوي فينا إلى الحيز الأكثر بعداً وامتناعاً على الوجدان والدهشة ؟

إذن هو أدب إسلامي يستلزم تعباً ، لأنه يقتضي لغة ،

وما لدينا أشلاء لغة ، بقايا لغة . . .

ما لم نستعد لغتنا فلن نستعيد تراثاً ، ولن نراكم تراثاً يضيء تراثنا ويفضي أو يشير إلى مستقبلنا . . . يستلزم لغة ويستدعي رؤ ية نقدية مفتوحة على كل الجهات والرياح والشموس والأعماق . . . بالتكاسل والإسترخاء والتواني وطلب اليسر والسهولة لن نستعيد شيئاً .

إنه لضار وقاتل ، ولا يكون إلا عن عجز ، ذلك التبشير بأدب إسلامي سهل تتحول فيه اللغة ، مفردة وصورة وجملة إلى استعارة من مخازن (الخردوات) . . ومريض ومصاب بحمّى العامة والعامية والشعبوية ، بالإبتذال ، من يبرر الهزال برضى العامة (الجماهير) .

كلنا للعامة .

كلنا للوطن ، ولكن هذه العامة المضروبة فكراً وذوقاً وذهناً ، لا تجوز ممالأتها على علامات الضعف في بنيتها وكوامن ومكامن هذا الضعف ، وإن لم تكن لها يد فيها أو اختيار ، وإن تكن ضحيه ، لا بد من مسافة ما بينك وبينها ، مسافة ليست انفصالاً ، بل هي مسافة وظيفية ، توظفها ضمن مقتضيات التمايز الذي يفترضه أو يقتضيه التعدد النسبي على قاعدة التوحيد والوحدة . . أن تكون مع

العامة ، فيها ، وليس منها ، لتأخذها حيث ينبغي أن تكون ، فكراً وذهناً وذوقاً وسلوكاً .

أعداؤنا هم الذين سطحوها ، فلا بد من الحفر في أعماقها لانتشال هذه الأعماق وإضاءتها وغسلها ، وإلا سوف نقع في ذرائعية الشرق والغرب معاً . . ذرائعية الشرق ، شرقهم (التعميم الماركسي ـ الواقعية الإشتراكية) والتطبيق الشيوعي القمعي لوحدة الشكل والمضمون على قاعدة الإنتاج الطبقي (للطبقة العاملة ومنها ؟) ضيق مجال الإختيار الأدبي . . هناك مناطق في تكوين الإنسان لا يمكن دمجها في العام بسهولة ، هي من العام ولا تنافيه ، ولكن لها أعماقاً أبعد من أعماق العام ، هنا تحول الأديب إلى حيز انفعال ، تأتيه مؤثراته بناء على العموميات الماركسية والتعميمات الحزبية ، في علبة ، فتحول إلى منتج محكوم بالسوق وقوانينه ، فالتبس الإبداع بالإنتاج ، وكان يمكن أن لا يتنافيا، لو كانت هناك فسحة في العقل الشيوعي ، وعندما أراد المبدع أن يبدع ، بعض المبدعين اضطروا لإعلان العصيان والتمرد فأبدعوا « بوريس باسترناك قديماً سولجنتيسن وحتى غابرييل غارسيا ماركيز حديثاً » . أما في الغرب . . ورغم الإعلان الليبرالي العريض ، فقد ظلت الطبقة تتحكم بتشكيل وصياغة الذهنية العامة وإخضاعها،

حتى تـدنت قابليـة التلقي وتبخـرت اللغـة ، ومعهـا حـل التهويم والهوامات محل الخيـال الخلاق ، وأخـذت تتسارع وتيـرة الإنتاج روايـة ومسرحـاً وشعـراً ، محكـومـة بـالشـره الإستهلاكي ، ومع تسارعها تنحـدر اللغة وتفقـد طقسيتها وظـلالها وأجـراسهـا ، ليسـود اليـومي العـادي البـارد في التخاطب والتواصل ، حيث لا تواصل ، بل توافق عقدي على التعايش واقتسـام الحيز بمـا فيه من هـواء وماء وشمس وثلج ورصاص . .

هكذا تحولت دعوة (ت . أس ـ إليوت) إلى التحطيم الـدائم للشكل ، من دعـوة للتحرك من الأدنى إلى الأعـلى والأرقى والأنقى والأجمل ، طبق منطق داخلي عاقل وعقلاني لا يفقد وهجه في حالة الإرتقاء . . تحولت إلى لعبة ساذجـة في التهديم لا تحكمها غاية ولا قانون . . وتحولت دعوته إلى الإقتراب من لغة الحيـاة اليوميـة ، من تأكيـد على ضـرورة الإصغاء لنبض الإنسان السـوي وأوجاعـه وأحلامـه ، إلى ابتـذال للشكل وتفـريغ للغـة من كـل إيحـاءاتهـا ومخـزونها التعبيري .

نـادي بالحفـر والتنقيب في أعمـاق الجمـاهـير وعـدم الإسترسال في النفاق الجماهيـري ـ مع الجمـاهير ـ وإلـزام النظام السلطة ، والنظام المعرفة ، والنظام التربية ، والنظام

الإجتماع ، والنظام الفن ، والنظام الإقتصاد ، برفد هذه الأعماق وتغذيتها للنهوض بها ، لإنهاضها ، لا قمعها وتهميشها وتسطيحها وتجهيلها ، وإلا أنشبنا أقلامنا وأعيننا في عنقه ، وحينئذ تصبح أقلامنا وعيوننا دليلاً لغضب الجماهير صنوجاً لثورتها .

أدب إسلامي ، ولسنا ملزمين بتبريره .

ومن الذي أعطى الآخرين حق المصادرة علينا ؟

هم ملزمون بالتبرير ، لأننا ، نحن ، لم نخرج على سياقنا والبقاء في السياق هو الشرط الأول والأخير للإنفتاح على الآخر ، للحوار والجدل ، للقبول والرفض ، والخروج على السياق ، الإلتحاق يعدم الأهلية ، لأنه تماهٍ مع الآخر أو هو وهم بالتماهي لا أكثر .

هم غرباء ، غرباء ، والغربة ليست لون بشرة ولا أداة تخاطب ، هم غرباء ، ليس لأنهم التحقوا والتصقوا واستعاروا حبراً وورقاً ودمعاً وفرحاً ، هذه مظاهر وتعبيرات وأعراض الغربة المرض ، هم غرباء لأنهم ليسوا موحدين ، من هنا يبدأ الإفتراق ، ومن هنا نلتقي والغربي الموحد في سياق واحد تحت شمس واحدة ولغة واحدة وإن تعددت أدوات تخاطبنا أو تغايرت ألوان حدقاتنا .

أدب إسلامي له ضوابطه الطوعية .

إن أخلاقنا سَمْتُنا وسِمتُنا ودليلنا . . . ليست أمراً آخر يضاف إلينا ، إنها نحن ، وما نحن إلا أخلاقنا في المحصلة « إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » . . بدونها ، بدون أخلاقنا نسقط . . ولا ينهض بنا شيء .

والحكم الشرعي قناتنا منه نمر ونعبر إلى أفعالنا اليومية وعلاقاتنا ، حبنا وكرهنا ، وإلى فعلنا الحضاري ، إلى العدو والعداوات والحبيب والمحبة وإلى التعبير عن جماليات الكون والحياة . ولا نحسه ضاغطاً ، دونه تتصدع عمارتنا وتنهار هو حصانتها ولحمتها وسداها ، هو ناطورها .

هو مشروع إذن يحتاج إلى همم ، وليس وصفة جاهزة ، وحذارِ من أن يُروّج له كوصفة . . وإلا فإننا نكون قد خرجنا من عتمة إلى عتمة ، ومن مصادرة إلى مصادرة ، ومن وصاية إلى وصاية ومن شرطي إلى شرطي .

هل بإمكاننا أن نقدم أدباً إسلامياً بدون زعيق ؟ بدون طبول ؟ بدون لافتات ؟ بدون مباشرة ، غير مرفوضة ، ولكنها ليست الزامية أيضاً ؟

لنقل ـ متفقين ـ إن إسلامية العمل الأدبي ليست بالضرورة تطبيقاً هندسياً لنص أيديولوجي حتى تتحول اللغة

إلى زنزانة ، وهذا ليس نفياً للإيديولوجيا ، وإنما هو اشتراط على العلاقة بين الإيديولوجيا وبين النص الأدبي .

وهل يمكن للأدب المفتوح أن يكون أدباً إسلامياً ؟ أدعي ذلك ، على أنني لا أفهم من الإنفتاح الإنسياح أو الطلاق النهائي مع الضوابط . . . وإلا فمن يضمن أن لا يتحول الإنفتاح إلى انغلاق ؟ إلى قوقعة يتوهم المحشور فيها أن مجاله رحب وفسيح وحر ؟ لا يرى إلى ما يجتاحه من أوبئة وجراثيم ، ولا يعدل عن طمأنينته للجو الموبوء إلا عندما تعتريه أعراض البرم والضيق والإختناق والإحساس باللاجدوى . . فينتحر . . . أو يوحِّد . . يخرج من ظلام الشرك إلى نور الإيمان ، ويذهب إلى البحر يعود واحداً موحداً متوحداً . . يجد نفسه . . يجد الكلي في مصاديقه ويجد المصاديق في الكلي . . يقول أبو حيان التوحيدي « ولا توجد الوحدة غالبة على شيء إلا كان ذلك دليلاً على حسن ذلك الشيء وبقائه وبهائه ونقائه » .

في وضح الليل

ـ متكآت ـ

١ ـ كان رسول الله (ص) « يقوم بوظيفة ـ أهله ويقطع اللحم معهن ويقول « خيركم خيركم لأهله » .

٢ ـ روى البخاري والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلاً سأله عن دم البعوض ـ أي ما إذا كان نجساً أو طاهراً ـ فقال : ممن أنت ؟ فقال : من أهل العراق فقال : أنظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن النبي (ص) !!!! ـ يقصد الحسين الشهيد عليه السلام .

٣ ـ بسر بن أرطاة أرسله معاوية بأوامر مشددة من الشام إلى الحجاز واليمن فمر بالمدينة ومكة وفيهما وبينهما وعلى طريقهما قتل وشتم وصادر وخرب وانتهى قبل أن يقصد صنعاء إلى الطائف ثم « خرج منها حتى مر ببني كنانة وفيهم ابنا عبيدالله بن العباس وأمهما . . فلما انتهى بسر

إليهم طلبهما فدخل رجل من بني كنانة وكان أبوهمـا أوصاه بهما فأخذ السيف من بيته وخرج فقال له بسر ثكلتك أمك ما كنا أردنا قتلك فلم عرضت نفسك للقتل قال : أقتـل دون جاري أعذر لي عند الله ثم شد على أصحاب بسر بالسيف حاسراً فضارب بسيفه حتى قتل ثم قدم الغلامان فقتلا فخرج نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن هذه الرجال يقتلها فما بال الولدان والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام والله إن سلطاناً لا يشتد إلا بقتل الزرع الضعيف والشيخ الكبير ورفع الرحمة وقطع الأرحـام لسلطان سوء فقـال بسـر والله لهممت أن أضع فيكن السيف قالت : والله أنـه لأحب إلي ان فعلت » .

مفتاح ذاتي لمزاج ثوري معاصر :

يفترض السيد « م » أن أولاده مخلوقات جميلة وحسب فإذا ما طالت أظافر أحدهم قليلاً ، أو عض أحدهم إصبع أحدهم ، أو أكل أحدهم من الأرز زيادة على ما يـراه هو ـ السيـد ميمْ ـ مناسبـاً ، يفكر أن يـرميهم في البحر ويتفـرغ لقراءة كتب لا يعرفها وكتابة رواية شرع بكتابتهـا أكثر من ألف مرة في كل مرة كان يكتب سطراً أو سطرين ثم يأخذ في التفكير بتوفير أساليب نظيفة للعيش تمكنه من التفرغ لكتابة روايات عديدة . . يطول بحثه ولا يهتدي إلى الوسيلة .

فيحلو له أن ينظم إلى جيوش الفقّراء الموزعين على أغنى البلاد وأفقرها ـ الإشتراكية منها والرأسمالية ـ ثم يلاحظ أن أولاده ينغصون عليه هذا الحلم فيقرر مرة أخرى أن يرميهم في البحر . . ينهض السيد ميم بعدما يكون قد سود صفحتين (فولسكاب) بتوقيعه ذي الخطوط الهندسية والذي ظل يتمرن عليه عشرين سنة أملاً بأن يصبح هذا التوقيع ذا فعالية في أحد المصارف ، ينظر إلى أولاده نائمين يتصورهم مخلوقات جميلة وغير مؤذية ويقرر أن يحبهم وأن يصحو باكراً ليقبل كلاً منهم على حدة .

استجواب في ركن محايد متوسط الإضاءة على قارعة القرن الحالي

ـ سيد (أكس) ما هي أفضل الأوقات لديك ؟

ـ الأوقات التي أتعرض فيها لأزعاج من زوجتي ينقذني من التفكير في أمور لا طائل وراءها .

ـ سيد (X) هل تحب زوجتك ؟

ـ بعد أمي بالطبع . . قبلها بعدها لا أدري ! على أي حال فإني كثيراً ما أفكر بالإقلاع عن ذلك ، وعندما يستبد بي الجوع ـ ظهراً ـ تكون قد حضرت وجبة متقنة فأعود عن قراري (السيد X يشبه السيد ميم في اتخاذ القرارات

والـرجوع عنهـا ويقول مبـرراً هذه جـدلية لأن الثبـات هـو تشييء للارادة) . . ثم لا ألبث أن أعود إلى القرار عندمـا تـدور المعركـة بينها - زوجتي - وبـين ابنتها البكـر على جمـع الغسيل وطيه ، فيحرمني ذلك نومة القيلولـة ، أدير قـرص الراديو على إذاعة عربية ، أسمع نبأ اغتيال فأنهض عارضاً على زوجتي التطوع بجمع الغسيل وطيه عربـوناً عـلى انتماء طوعي واع ، تصرخ في وجهي متهمة إياي بتمييـع الموقف والصراع ! اطلق ضحكة مجلجلة وأقول ! وصلنا . . لقد أصبحت تتكلمين مثل الثوريين العرب . . تضحك بدورها لهذا الإطراء وتسمح لي بجمع الغسيـل وطيه ، أنهمـك أنا بجمـع الغسيل وطيـه . . وتأخـذ هي تحدثني عن آلامهـا الجسدية الكثيـرة ، عبثاً أحـاول إقناعهـا بأن المسؤول عن ذلك هو حركة التحرر العربية وتعيد علي صورة الحلم الذي يراودها في أن تصبح جدة وحينئذ سوف تعلمني وتعلم أمي وأمها كيف تكون الجدات ! أنظر إليها بغبطة مشوبة بالحسد وأراهـا صـالحـة لأن تكـون حـاكـماً لـلأمـة من المحيط إلى الخليج . . لا أقول لها ذلك خوفاً من أن يؤثر على موقعي في معادلة المنزل . . وأعيد النـظر في جدوى الكتـابة الـروائية فتبدو لي الرواية التي لم أكتبها مشروع إعتداء وارتكاب . .

- سيد ميم

- عفواً أنا سيد (X) .
- عفواً سيد(X) هل تحبك زوجتك ؟

- سبحان الله الذي أودع في نسائنا هذه القابلية على الصبر على حب أزواجهن من المهد إلى اللحد ! بودي أن تكون علاقة الحكام العرب بالأمة أو الشعوب والأقطار وفلسطين والوحدة كعلاقة الزوجات العربيات بأزواجهن (خارج الحداثة بالطبع) . . واقصد مضمون العلاقة لأنها من حيث الشكل والزمن أسوأ بكثير من تلك العلاقة .

- سيد (X) هل تخاف من شيء ؟
- لا أخاف من الكلاب السائبة ولا من الغروب . . أخاف من ذنوبي عندما أتذكرها وأحمد الله أن ذاكرتي نشطة إلا في تذكر الذنوب . . بصراحة أخاف من كل الأنظمة والمصيبة أن الأنظمة لا يمكن نسيانها ، لأن نسيانها ليس رهناً بمشيئتي . . إن حضورها أقوى من الذاكرة فضلاً عن النسيان . . حتى في الحمام تجد الأنظمة معك ، لا تستحي من عريك . . ربما تأتي من (رشاش) الماء الساخن .

- سيد (X) لماذا تخاف الأنظمة ؟
- أولاً لأني ضد التمييز العنصري في جنوب افريقية
- ثانيا .

ـ ثالثاً لأني فقير وأحب الحياة الدنيا ورفاهيتها . هذه فطرة بحسب القرآن الكريم ، وأنا لا أدعي أن فطرتي مغايرة للمفهوم القرآني ، ولكني قضيت عمري وأنا أبحث عن طريق حلال وشريف إلى ثروة متوسطة أو دون الوسط بقليل ـ حسب معايير قريتنا ـ فلم أجد . . وقررت أكثر من مرة أن أسلك الطريق ، غير الشريف رغم تحذير زوجتي ، ولكني اكتشفت أني لا أعرف هذه الطرق ، إلا كما يعرف صبي معاق حدود القطر العربي الذي يسكنه . . كما اكتشفت أنه ، مع فرض المحال ، لو سلكت هذه الطرق ، فلن أعود أنا يعني أصبح أنا غير أنا فمن يبقى ليستمتع بالثروة الملوثة ؟ . .

ـ وما الداعي سيد (X) للخوف من الأنظمة في هذه الحالة .

ـأخاف أن تعرف الأنظمة سري وتخمن بأني سأقود ثورة .

ـ هل تحلم .

ـ كثيراً لأني مصاب بقرحة مزمنة في المعدة ـ منذ نكسة حزيران ـ ومضطر للأكل قبل النوم والنهوض أثناء الليل ومعاودة الأكل (تصور أن جائعاً في مالي أو أرتيريا مصاب بقرحة المعدة مثلي !)

ـ أعني أحلام يقظة
ـ في اليقظة كوابيس فقط .
ـ ألا تحلم بتحرير فلسطين ؟

ـ أحلم بالعودة إلى قريتي في جنوب لبنان ، لأن لي بيتاً فيها بناه أبي وأنا الوارث الوحيد مثل ابن الرئيس كيم إيل سونغ الفرق بيني وبينه هو أنني أرث المنزل وهو يرث فكرة (زويتشة) وأن يكون لي بيت في القرية فأن ذلك يريحني من التفكير يومياً في الإيجار الشهري وشهرياً في الإيجار السنوي مما يمنعني ويعوقني عن كتابة الرواية ، والحياة في القرية أقل كلفة وإزعاجاً . . أني أتساءل ! كيف يمكن أن نحقق الإستقلال المنشود أو الوحدة وعندنا مثل هذه المدن العملاقة الطاحنة ؟

على العموم قد يكون تحرير فلسطين سبباً في عودتي إلى القرية ولذا فأنا مع تحرير فلسطين .

ـ هذا إفراط في الواقعية سيد (X) .

ـ وهل الحكام العرب سورياليون ورؤساء الأحزاب دادائيون ؟

ـ والناس . . الناس سيد (X) .

ـ هذه شعبوية . . أنا من الناس . . الآن أنا من الناس ولو كنت من غير الناس لدوخت القراء بالأجوبة المركبة ، الملتهبة ، الساطعة الحادة ، المدببة الدبقة الثاقبة المتوهجة ،

الشرسة ، الجامعة المانعة المشوقة الجميلة التي تثير كوامن الروح والجسد .

ـ ما رأيك فيما يحدث في جنوب لبنان ؟

ـ لست مسؤ ولاً عنه .

ـ لا أحد يتهمك ، ولكن ما رأيك ؟ ومن هو المسؤ ول ؟

ـ رأيي أنه مخيف ، لأنه عندما ترحل إسرائيل لن يجد المقاتلون من يقتلونه إلا أنا وأمثالي . . أما عن المسؤ ول فأنا لا أعرفه ، أعرف غير المسؤ ول ، فأنا غير مسؤ ول ، والأحزاب التقدمية والرجعية والوسط غير مسؤ ولة ، والأنظمة التقدمية والرجعية والبين بين غير مسؤ ولة والشخصيات الوطنية غير مسؤ ولة والشعراء ونجوم السينما والاذاعة غير مسؤ ولين والمنظومة الإشتراكية وعلى رؤ وسها منغيستو مريام (أثيوبيا) وأنور خوجه (ألبانيا) وديديه راتسيراكا (مدغشقر) . . غير مسؤ ولين . . أنا أراهن على أن كل من أعفيته من المسؤ ولية سوف يعتبر ذلك مديحاً وإنصافاً يؤ هله لقبول الشرعية الدولية . . الجهة الوحيدة التي ربما استاءت من ذلك لأنه يضعف موقفها التفاوضي في محادثات الحد من الأسلحة النووية هي (الموزامبيق) . . . أن هذا الكلام يكتسب أهميته إذا لاحظنا أننا على أبواب

« يالطا ثانية » . . ويلي على لبنان الذي سيكون بولندا المرحلة !! مما يعني بالتالي أن نتوقع أن تثور الطبقة العاملة على حزبها في المستقبل ويدخل (فاليسا) لبنان السجن . .

ـ سيد ميم . . تبدو عبثياً وعدمياً . . عفواً سيد X .

ـ ليس هناك مشكلة فأنا ميم و X معاً . . في نفس اللحظة . . هذا ديالكتيك .

أما عن العبث والعدمية فسوف أرد بشكل غير مباشر مستخدماً حسي الروائي والدرامي معتمداً على المفارقة لتحديد الرؤية . . قبل الإحتلال الإسرائيلي للبنان كان الناس في الجنوب قسمين أقلية ضد إسرائيل ، لا تخاف منها وتحرض على قتالها وتحذر من التعامل معها ، وأكثرية محبطة تخاف إسرائيل وتعلن تفضيلها على الأنظمة العربية وقوى الثورة العربية . . كان هناك خوف من أن تتحول هذه الأكثرية إلى عملاء إذا دخلت اسرائيل وأن تحصل إبادة للأقلية الواعية ، الذي حصل هو أن الأكثرية كفت عن خوفها وإيجابيتها تجاه إسرائيل وقاتلتها بالعصي والحجارة . أما الأقلية المسلحة بالوعي والسلاح فأنقسمت إلى شطرين : شطر خاف وخرج واستمر يقاتل اسرائيل ـ بعد تدشين المقاومة ـ بالكلام إياه وشطر تحول إلى عملاء بدافع الخوف أو بعامل الرداءة الأصيلة .

الله يذكره بالخير أبو إسماعيل ، كان مرة - قبل الإحتلال - يسهر في الحسينية حيث كان أحد القياديين الكبار يجيب على أسئلة الساهرين ، سئل القائد عن القتال فيما لو دخلت إسرائيل إلى الجنوب فأجاب بعبارات ليس من الصعب أن يفهم الجميع منها أنه أي القائد يحبذ القتال والمقاومة . . ولكن أبا إسماعيل أبى أن يفهم إلا أن القائد لا يحبذ المقاومة . . هذا القائد وغيره تراجعوا عندما دخلت إسرائيل ، وعندما احتدم القتال ضدها واتسع عادوا إلى مواقعهم القيادية . . أما أبو إسماعيل فعنده بطلان من أولاده مضى عليهما سنة في معتقل أنصار .

ومثال آخر . . أبو محمود جفال ، كان وجهاء الضيعة يمتعضون منه ، ويعتذرون لوجهاء المنطقة عن جلوسه في المقاعد الأمامية في حسينية الضيعة (من الضوع - ضوع العبير لا من الضياع الذي عادة ما نجده في المدينة) . . في مناسبات المآتم والاحتفالات الثورية . . أما هو فكان يمد رجليه (لم يتعلم أن يضع رجلاً فوق أخرى) ويظهر لحم قدميه العاريتين وتأخذه غفوة أثناء الخطاب أو المحاضرة أو القصيدة (لو كانت الروايات تلقى على المنابر لكنا سمعنا شخير أبو محمود وأبو علي وأبو حسين من بعيد) . . لم يكن أبو محمود يفكر كثيراً في اختيار مجلسه ، كان يستيقظ مع

الفجـر ، يصلي ، يشـرب كوبـاً من الشاي مـع أبو جعفـر يقضي دقائق مع السيـد موسى طـالـب ، يعاكسـه أبو فؤ اد أمـام باب دكـانه ، يتجـه إلى الحسينية قبـل بدء الإحتفـال بساعات ، تكون الحسينية خالية ، يعرف أن الوقف لمن سبق كما في صلاة الجمعة وكما علمه الشيخ ، يختار مقعداً أمامياً ، مشكلة المقاعد الأمامية أنها مريحة (كنبات) تغري أبو محمود بالنوم ، فلا يغالب نعـاسه عـلى طريقـة الوجهـاء . . . أبو محمـود جفال مـا زال هندامـه كما كـان ، قميصان ببـاقتين ولونين أزرق ووردي وسترة سوداء قصيرة الأكمام وبنطلون أصفـر ، يستيقظ مع الفجـر يصلي يشـرب شايـاً ويأتي إلى الحسينية ويحتل مقعداً أمامياً (كنبة) الذي تغيران الوجهاء لم يعودوا يعترضون على جلوس أبو محمود في المقاعد الأمامية ، لأن أبـو محمود أنتـج اثنين من خيـرة الأبطال ومن ضيـوف معتقل أنصار . وإن كان ذلك في منظور الوجهـاء لا يعطي حقـاً لأبي محمود في المقعـد الأمامي ، فـأن الوجهـاء لم يعد بأمكانهم التعبير عن امتعاضهم منه لأن القليل منهم يأتي إلى الحسينيـة في المناسبـات وان أتوا فـلا يلبثـون إلا قليـلاً ولا يجلسـون في المقاعـد الأماميـة . . لم يعودوا حـريصين عـلى الـوجاهـة في هـذا الـزمن الصعب (عليهم) . . أصبحت المقاعد الأمـامية تلقـائياً مخصصـة لآباء الشهـداء والجرحى

والمعتقلين . أولاد الوجهاء والقادة أجسادهم طرية لا تتحمل جرحاً ، من يعرض وردة لجرح ؟

. . والأمة بحاجة إليهم . . هل هذه عبثية أيضاً . ؟
كنا نقول كل الحقيقة للجماهير هذا شعار مرفوض ومصادر وخادع . . لأن كل الحقيقة عند الجماهير التي تصنع الحقائق ولن تبوح لنا بها لأنها لا تأمننا عليها .

ـ ما هي أمنياتك للعام الجديد ؟

ـ١ ـ أن يقف الحكام العرب وقادة حركة التحرر العربية صفاً منحنياً على شكل قوس قزح بالألوان على مقدمة خشبة المسرح (البريختي أو البيكتي) ويحيوا الجمهور بانحناءة لطيفة إلى الأمام معلنين نهاية السهرة وهم يغنون معاً (حبي علينا بس حبي متلنا) (تكتك حجلكن جاوبوا عصفورنا) .

٢ ـ أن لا يقسم لبنان حتى لا أضطر كل شهر لتبديل جواز السفر بعدما تمتلىء صفحاته بأختام الفيزا والخروج والدخول ـ وأنا سوف أقيم في الجنوب نظراً لغلاء المعيشة في بيروت وما سوف يحدث من كساد في سوق الفكر الوحدوي والأدب الوحدوي ـ إذن سوف أضطر للسفر أسبوعياً إلى بيروت لقضاء سهرة (طق حنك) في جريدة السفير (إذا لم

تنتقل إلى شمطار) . . والتعليق على القيادات الوطنية التي تقضي أكثر لياليها في « السمرلاند » العادة التي لازمتها منذ أن أصبحت بيروت مفصلاً لأموال النفط . . هذا عدا عن الإستمتاع بنشاطات المجلس الثقافي للبناني الجنوبي من خلال حديث « عزيزي » حبيب صادق . . لا أتوقع أن ينقل المجلس الثقافي للبنان الجنوبي إلى عاصمة الكانتون في النبطية أو إلى الخيام لأن الجنوب الثقافي ، شعراً وبحثاً ورواية وحفلات كوكتيل لا يكون إلا في بيروت . . لا يكون في معركة أو جبشيت أو السكسكية . . هذه الأخيرة اسمها ثقيل مثل القعقعية . . لو كانت (كفر حالا ، بتغرين ، تنورين ، ميس الريم ، بحر صاف ، بكفيا كان أفضل) . . ثم كيف يمكن استقبال وتأمين راحة الضيوف الأجانب في الجنوب من مثل (يفتوشنكو وغارسيا ماركيز وماريا كالاس وفرقة البولشوي . . وأهل القرى لا يعرفون جيزيل أو بحيرة البجع أو كسارة البندق أو بلودانوب ولا يعرفون مؤلفيها) . . يعرفون محمد سعد وإبراهيم خضرا وعبد الأمير درويش وعباس بليطة وبلال فحص وعبد اللطيف الأمين والرائد راغب حرب .

٣ ـ أتمنى أخيراً أن يصبح الشعراء العرب رؤساء دولهم لأن أمزجتهم المتقلبة وسرعة مللهم تجنبنا الملل من بقائهم في

الحكم حتى أرذل العمر أو حتى تحقيق الأمنية بالمنية .

الخلفيات التاريخية للوضع العربي الراهن

أ ـ « . . فاشتد القتال فقال مروان لقضاعة أنزلوا ـ قالوا حتى تنزل كندة فقال لكندة أنزلوا فقالوا حتى تنزل السكاسك فقال لبني سليم أنزلوا فقالوا حتى تنزل عامر فقال لتميم أحملوا فقالوا حتى تحمل بنو أسد فقال لهوازن أحملوا قالوا حتى يحمل غطفان فقال لصاحب شرطته أحمل ويلك ـ قال ما كنت لأجعل نفسي غرضاً قال أما والله لأسوأنك قال وددت أن أمير المؤمنين يقدر على ذلك . . فأنهزم عسكر مروان وانهزم مروان معهم وقطع الجسر فكان من هلك غرقاً أكثر ممن هلك تحت السيف (مروان هو آخر الحكام الأمويين في المشرق (الحمار) والمعركة هي معركة الزاب .

ب ـ « وفد أهل البصرة إلى عبدالله بن الزبير فتكلم منهم أبو حاضر الأسدي وكان خطيباً جميلاً فقال له عبدالله بن الزبير : أسكت فوالله لوددت أن لي بكل عشرة من أهل العراق واحداً من أهل الشام صرف الدينار بالدراهم فقال يا أمير المؤمنين أن لنا ولك مثلاً أفتأذن في ذكره قال : نعم قال : مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعشى :

(علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها

الرجل) أحبك أهل العراق وأحببت أهل الشام وأحب أهل الشام عبد الملك فما تصنع ؟)

تطبيق على مقولة الاستتباع عند ابن خلدون

١ ـ في إحدى قرى جنوب لبنان واحد من بقايا (البكوات) فقير لا يجد قوت يومه ويأتيه أهل القرية بالقوت صدقة ، مغضين عما كان ينزله بهم من عسف أيام عزه ، فإذا طرق أحدهم الباب ولم يناده بلقبه (محمد بك) لم يفتح الباب وبات ليلته طاوياً .

٢ ـ أوائل الستينات طرقت سيدة تحمل أوراقاً وقلماً باب منزل مصطفى النحاس باشا فتح لها الخادم ـ جلست في الصالة ، أخبر الخادم مخدومه قال : (صحافية يا بيه) ربما تريد أن تجري (ريبورتاج) ارتاحت أسارير رئيس وزراء مصر الأسبق وزعيم الوفد بعد سعد زغلول لهذه القادمة لتنفض عنه الغبار أمر الخادم أن يستمهلها بعض الوقت ، شعر الخادم أن لهجة (البيه) تغيرت ، استعادت أرستقراطيتها وقاطعيتها الرئاسية بلع الخادم ريقه وراح الباشا يدوزن هندامه فأرتدى طربوشه المذهب والبذلة الكحلية المعطلة منذ أكثر من عشر سنوات وربطة العنق المناسبة ودخل بأبهة

شـــائخـة وسلم بصـــوت خـافت وابتسم وجلس وقـــال : تفضلي ـ قالت : ما أسمك . . أحس بصدمة خفيفة تحملها وتجاوزها باحتمال أن يكون ذلك مدخلاً تقليدياً لا بـد منه وقال : مصطفى النحـاس باشـا ـ قالت : عملك ـ انبهت الرجل ـ عـاد الغبار إلى وجهـه وبذلتـه ورباطـه وطربـوشه وذاكرته وحذائه تبـين أن السيدة بـاحثة إجتمـاعية اختـارته كعينة عشوائية في دراسة ميدانية .

٣ ـ ماذا سوف نصنع بهذه الآلاف من القيادات عندما يجف النفط ؟ .

٤ ـ « سحـر تاريخـك انتهى . أدفنوا وجهـه الـذليـل وموروثه الأبلها .

واعذري واغفري يـا قرون الغـزالات ، يا أعـين المها »

أدونيس أفندي

١٩٨٥/١/١

عودة

الإبن الضال

كنت أتـأبط ذراع تـأبط شـراً خـارجـين من متحف « اللوفر » في باريس ، يتبعنا المهلهل .

أخذ تأبط شراً يحدق في ماء « السين » ويـردد من شعر أدونيس : « أقول للفرات أن يمتد كالسقيفة أمنع غير الشعر أن يبايع الخليفة » .

قلت لـه : لا تـطل التحـديق فـربما نبتت شتلة « باذنجان » مكان صورتك في الماء .

لكزني في خاصرتي وقال : « بالله عليك هل تصدق أن « الجوكوندا » هذه الأسيرة في إطارهـا الأسير في هـذا البهو المعتم في « اللوفر » تتراءى متلونة بالحـالة الـداخلية للنـاظر إليها ؟

لم يمهلني حتى أجيب وقال : أسمع السياب :

« عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر » .
أسمع أمل دنقل :
« عيناك لحظتا شروق
أرشف قهوتي الصباحية من بنهما المحروق وأقرأ الطالع . . » .

وأسمع هذا العمود :

« ولقد ذكرتك والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسِّم » .
ثم صرخ : أي جوكوندا هذه !!!

هذا الشعر مفتوح على الألوان والحالات والظلال والإحتمالات . إنه احتمال لن يصل إلى نهاية .

وبعد القيامة يتولد منه إحتمال آخر ، يضارعه احتمالاً ، ولكنه لا ينتهي أبداً . . « دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً » « حور مقصورات في الخيام » « وعندهم قاصرات الطرف عين » . أصر تأبط شراً على الدخول إلى مكتبة الخارجية الفرنسية ـ قسم الوثائق ـ

ليبحث فيها عما إذا كانت هناك مصادر تثبت إرهاصات الشعر العربي الجاهلي بالنفط .

رحبت أنا والمهلهل بالفكرة وهممنا بالدخول .

كان جالساً على سلم المدخل . . أشعث أغبر . . رث الثياب ، يحمل في جيب سترته زجاجة فارغة .

قال المهلهل عندما لاحظ تأبط شراً إنشداهي بمنظر هذا المخلوق الذي لم أتمكن أن أخمن عدد سنوات عمره ولا ما تبقى من أسنانه . . ضحك وقال : إنه من « الكلوشار » مشردي فرنسا ألم ترهم ؟ إنهم يعدون بالآلاف في باريس .

لفت نظرنا أن الرجل كان يصغي لحوارنا وكأنه يفهمه (لم يكن واضحاً ما إذا كان لون بشرته أشقر أو أسمر . . فشعر رأسه ولحيته أبيض بالكامل والوسخ يغطي ما تبقى من وجهه خلواً من الشعر . وعيناه عسليتان محايدتان مثل مؤتمر « باندونغ »)

تقدم المهلهل نحوه وقال : بونجور مسيو .

رد بلغة عربية فصيحة ، خليط من قيس وتميم وبعض السكاسك : عمت مساءً يا ولدي .

تعجبنا وسأله المهلهل : من شمال إفريقيا يا أخا تغلب ؟

تنهد وقال : أخيراً صار الأصل فرعاً !!!

قال المهلهل وقد نفد صبره ويده على قائم سيفه : ما سرُّك ؟ من أنت ؟ خلِّصنا .

قال : أنا الوطن العربي .

ساد صمت بيننا .

وتابع : معكم سيجارة لف ؟

قال تأبط شراً : هكذا دفعة واحدة يا بابا !!!

ثم إن ملايين المدخنين يتحولون يومياً إلى (ميريت) . . . لماذا لم تتحول إلى ميريت . . . غير ، تحول . . . .

« غير رنينك يا صوت
أسمع صوت الفرات
قريش . .
لم يبق من قريش
غير الدم النافر مثل الرمح
لم يبق غير الجرح
إفتحي يا براري مصاريع أبوابك الصدئات » .

أضاف تأبط شراً مخاطباً الرجل : ألا تسمع مونت

كارلو و Hikmat Wahbe ؟

قال الرجل الوطن العربي : طيب حبة تمر أو رطب أو حشفة . . ما تيسر ؟

قال تأبط شراً : يبدو أنه من (الفلاشا) . . وتابع متسائلاً : حشف في زمن الكاتو والكريم كراميل يا حسرتي ! قال الوطن العربي الرجل : آه . . كراميل الأفغاني الذي يتهجى لغة الصقالبة ! ! تباً لك يا حمدان بن قرمط .

تشاورنا بشأنه من يكون ؟

قال تأبط شراً : لا داعي للجدل ، إنه إحتمال عربي يبدأ من أي نخلة ، من امرىء القيس وينتهي بشوقي بزيع مروراً بمحمد مهدي الجواهري .

قال المهلهل : وهل حللت لغزاً أو أضأت معتماً ؟

اللعنة أيها الرفاق . . أنسيتم أننا حاجزون على مسرحية (دائرة الطباشير القوقازية) ؟

إلى المترو يا أولاد . .

كنا نركض نحو محطة المترو يسبقنا تأبط شراً المعروف بسرعته في العدو . . . التفت إلى الوراء . . رأيته ماداً لسانه نحونا « ثم حككت له أنفي ومشيت » .

ليلاً . . تركت المهلهل وتأبط شراً غارقين في نقاش حام حول تأثير إليوت في الشعر الجاهلي . . وانسللت من باب الفندق . . أتيته . . وجدته على جلسته تلك يزدرد « ساندويش » همبركر بلذة عارمة . . .

إلي أيها الوطن العربي . (كان النعاس قد وافاه فأطاعني) . ضع رأسك في حجري .

« ضع رأسك الواهي على كبدي » .

دعني أعبث بحليتك قليلاً . . دعني أفلها لك .

هذه هي القملة الأولى . وهذه هي الثانية . . وهذا برغوث وهذه بقة ، وهذه قملة ثالثة ، رابعة ، عاشرة، عشرون اثنتان وعشرون . . والحبل على الجرار . . ما هذا يا عزيزي ؟

رفع إلي عينين ذابلتين وقال : هل لديك حبوب لمنع الحمل ؟

قلت في سري : العوض على الله ، لقد خرف الوطن العربي .

وسألته : وماذا تصنع بها ؟

قال : مللت . لم تعد ذاكرتي تقوى على حفظ الأسماء

والحدود . كل يوم اسم جديد ، جمهورية جديدة ، قومية جديدة ، إمارة جديدة ، نشيد وطني جديد ، تراث شعبي وفولكلور جديد ، تاريخ جديد ، مملكة جديدة ، إمبراطورية جديدة ، إتحاد جديد لا يلبث أن ينفرط وينفسخ إلى ثلاثة مع أن أصله اثنان . . والحزب إلى عشرة والحركة تصبح سكوناً والسكون يمسي مطلقاً . . والفتح حتفاً والشعب عشباً . . . مللت . . أحس أني بين يدي قصاب لئيم وغير ماهر . . . للموني .

نحيت بطرف إصبعي برغوثاً كان يهم بدخول منخره الأيسر . . ابتسم وقال : دعه يمر فقد مرّت قبله غربان وجرذان هل تكتب الشعر يا بني ؟

قلت : بلى يا عزيزي . وأتعاطى السوناتا والكونشرتو والسمفوني والأوبرا والأوباريت والأراجوز والمونولوج والطقطوقة والباليه والفالس والعراضة والدبكة وسباق الهجن وضرب الكف على الكف والعض على الأصابع والعدو للإختفاء عن أعين رجال الأمن .

قال : وعلى أي بحر تكتب ؟

قلت : تجتذبني السواقي والجداول ولكنها سرعان ما تنضب . . كنت أكتب الشعر الحديث على بحر الريف إلى

أن ابتلعت العواصم أريافنا وصرنا نستورد الجرجير والكزبرة والكراث من اليابان . . . فصرت أكتبه على قناة السويس ، ولكن قوات التدخل السريع والنجم الساطع وحرّاس فندق « مينا هاوس » اتهمتني بالتواطؤ مع خالد الإسلامبولي وسليمان الحلبي وزهران وعرابي ومصطفى كامل والأفغاني . . وشى بي شاور ، فصرت مضطراً لكتابة الشعر الحديث على قناني (صحة ونعص وندى وإيفيان) .

أما الشعر العمودي فكنت أكتبه على الخليج ، ثم وجدت أن الخليج كثير الزحافات والعلل ولا يصلح عروضاً إلا في حالات الإحساس بالغربة والفصام والغثيان . . وقد قطعوه قطعاً ليصبح مناسباً لكتابة نوتات الجاز والديسكو . . فعدلت إلى بحر النفط فاشتعلت أصابعي فتركته إلى بحر الغاز فكدت أختنق وثارت ثائرة أمي وقالت : هذا تبذير نحن - بسبب ظروف الحرب - نستعمل الحطب بدل الغاز لطهي الطعام المفيد وأنت تستعمل الغاز لكتابة الشعر وهددتني بإشعال النار بكل أوراقي - ليتها فعلت - . . المهم أن رأيي استقر على الكتابة على البحر الميت وبحر الظلمات . واعتذرت له عن الإكثار من استعمال حرف الفاء في العطف نظراً لأن الفواصل الزمنية بين السيئات قد أصبح فاصلاً ضعيفاً .

قـال : وأين البحـر الـطويـل الممتـد من المحيط إلى الخليج ؟

قلت : لقد صار قزماً بفعل التجزئة وهو مشغول دائماً بتقصير بنطالـه . . . . لأن قامتـه تقصر بـاستمرار وتـذهب عرضاً . . قال : والمتدارك ؟

قلت : أهملوه ، أخـذه العبـرانيـون ، أنهم يكتبـون التلمود الحديث على بحيرة طبرية والتوراة على بحيرة الحولة والخليل صارت حبرون والخالصة كريات شمونة وبئر السبع بيرشيفا وأمنون كابليوك يتكلم باسم القسـام و « وجه يـافا طفل

هل الشجر الذابل يزهو ؟
هل تدخل الأرض في صورة عذراء ؟
من هناك يرج الشرق ؟
جاء العصف الجميل
ولم يأت الخراب الجميل » .
وتابع : والخَبَبُ ؟

قلت : صار خبثاً وخبلاً وخبالاً وخوفاً ؟
والرمل ؟

قلت : صار عصاً لأقفية الجنود الذين لا يحسنون تأدية

التحية . والرجز ؟

قلت : صار جزراً ـ بفتح الجيم والزين والـراء واقفال الفم ـ كل لغتنا صارت مفتوحة ، لم يعد لها أبواب ، أفواهنا فقط مغلقـة ـ الـرجــز صـار جــزراً وأنـا الأرنب . . أنت الأرنـب . . أنــا وأنت وهــي وهــو أرنـب . . يــا وطـني الأرنب . . يـا أرنبي . . . أيهـا الأرنب الـوطن . . . أيهـا الأرنـب الــوطني . . . . أيهــا الــوطـني الأرنب . . . يــا وطني . . . يا وطن الأرانب . . . يا وطن يا أرانب . . . يا ليل يا عين . . . يا أرانب الوطن أما فيكم بقية من غيره على هذا الوطن ؟

لماذا تدسون له الحشيش في حليب النوق ؟ والويسكي في نقيع الزبيب ؟ والهيروين في المخيض ؟ والنفط في قهـوة الصبـاح ؟ حتى يذبـل ويهزل ويغبـر وجهه ويتشعث شعـره وترتخي مفاصله ويندلق لسانه !!

يا وطني ، يا حبيبي ، يا صغيري ، يا أجمل أطفالي ، أيها الألثغ المتأتىء ، يا أصغر أطفالي ، يا طفلي الغائب ، يا طفلي المريض ، يا طفلي الوحيد ، يـا طفلي الكبـير . . . يا أبي . . . ألم تر كيف فعل ربك بعاد ؟ إرم ذات العماد ؟ ألم تر ؟ .

من رأى رأيت يـرى رأينـا رأيتم رأيتهن رأوا يـرون ؟
« أراك عصي الدمع شيمتك الصبر » .
و« أراني أعصر خمراً » .
أراني أشرب نفطاً .

وراء رأى رؤ ية وعندما رأى الرؤ ية رأى :

« وطناً يذوب القلب فيه ومن تحته
نفط يكاد من السفاهة ينضب »

وراء رأى رؤ ية وروى الرؤ يـة على من لم يـر الرؤ يـة ولكنه سمع . .

« والأذن تعشق قبل العين أحياناً » . مع اعتراض لنـا على بشار فـ (أحياناً) قيـد غير دقيق ، لأنـه عندمـا يكون الأعمى أعمى فالأذن تعشق قبل العين دائماً بل ودون العين .ائماً . لأن : « من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى أضل سبيلاً » .

وتابع الراوي يروي ما رأى الرائي الذي رأى ما رأى : سادة يا كرام : وكان عام انحبس فيه المطر وجفت البحور ضـروع والضلوع وغـارت الأنهار وانقلبت الأشجـار ، ـور إلى أعلى والغصـون إلى أسفل ، وتقـطعت الأواصر البشر . . . « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت

وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

وصارت ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها أيحسب أن لم يره أحد . ألم نجعل له عينين . وحمل الناس المصاحف فوق رؤ وسهم ورؤ وسهم فوق المصاحف . . .

« هذا زمن الحق الضائع
لا يعرف فيه مقتول من قاتله وحتى قتله ؟
ورؤ وس الناس على جثث الحيوانات
ورؤ وس الحيوانات على جثث الناس
فتحسس رأسك
فتحسس رأسك » .

وداروا في أزقة الوطن العربي يضرعون إلى الله تعالى أن يمنع الوباء وما هي إلا سويعات حتى جف النفط وتنفس الناس الصعداء .

***

وكان رجل طاعن في السن وفي السر ممعن في السواد ، ضارب في البياض أتى من لحظة كانت بين الأصابع ولم يكن الذي رأى قد رآها وعندما رآها تعجب من أنه لم يرها .

الرجل الطاعن الممعن الضارب ، كان هادئاً كليلة حصاد ، ولا تبدو عليه آثار دهشة أبداً وقال : « ما كذب الفؤاد ما رأى » « أفتمارونه على ما يرى ؟ » .

***

أيها الوطن العربي : .

هل أنت وطني ، قطري ، أممي ، بروليتاري ، تروتسكي ، برودوني ، يمين ، يسار ، تخلف ، تقدم ، نمو ؟

هل أنت أنت ؟

بدون تكلف قال : لا

قلت : وأنا أيضاً . . . فهل أنت غير أنت ؟

بدون مشقة قال : لا .

قلت : وأنا أيضاً . . . إذن من أنت ؟ ما أنت ؟ « أنا جمر ثورتك انفجر
غير دويِّك وانفجر » . .

غيرت الدوي يا سيدي ولكن الشرطي سرعان ما صادر حنجرتي !!!.

الرجل الطاعن الممعن الضارب ، كان يحمل عصاه، يهش بها على قطيع من خنازير عند مثلث الزهراني بعيد

صلاة الفجر يوم السابع عشر من شهر شباط . وأتى الوطن العربي ، نظيف الوجه ، عريض الأكمام ، في يده إضمامة من زهر النارنج وفي الثانية باقة حُمِّيض . . سلمت عليه ، رد بفتور بالغ ، عانق الرجل الوسيم الطاعن الأنيق . . . عندما تعانقا فاحت رائحة التاريخ . . . واتجها جنوباً .

تطايرت خلفهما أوراق القصائد والروايات . كان الوطن العربي يمشي وكان أعضاء بدنه كل منها يتحرك باتجاه الآخر بفعل جاذبية قوية ، وتبدو.كما لو كانت متباعدة منفصلة بفعل فاعل مجهول ولكنه خبيث . . . وكان مجمل جسده يتحرك في مدى يفيض عن ثوبه طولاً وعرضاً وعمقاً ، واللغة العربية تفتح الطريق أمامهما بمهارة شرطي مرور ، عتيق ، تقي ومواظب .

وكانت الخنازير تندفع مذعورة وكريهة نحو البحر . وكانت بحور الخليل تتدفق شعراً والمتدارك يبرأ من علله وزحافاته . . . ﴿ **فلما تراءى الجمعان قال قوم موسى إنا لمدركون .. قال كلا إن معي ربي سيهدين** ﴾ .

أول آذار ١٩٨٥

١ الهروب

ـ لماذا تكتب رمزاً ؟
ـ لأن للرمز ظلالاً كثيرة كظلال الجنة
ـ إنك تهرب . . . لماذا تكتب رمزاً ؟
ـ وهل الهروب عيبٌ ؟ ممَّ تهرب ؟ وإلى أين ؟ هذا هو السؤال .
ـ إذن لماذا تكتب رمزاً ؟
ـ لأن الرمز ستار العيوب . . كالليل .
ـ هذا رمز آخر وليس جواباً . . لماذا تكتب رمزاً ؟
ـ لأني قرأت بريتون وإنتاج السورياليين بعد الحرب الكونية وانتصار الآلة وتعرفت إلى الهاربين من جنون الواقع وقسوته وبذاءته إلى الحلم . . . وفي الحلم ؛ كما تعلم إذا كنت قد جرَّبت ، تذوب الأبعاد تتلاقى الأضداد وتتسع اللغة .

ـ هذا شعر . . . لماذا تكتب رمزاً ؟

ـ لأني لست مطمئناً لآخرتي حتى أعجِّل بالرحيل عن الدنيا .

ـ الرمز لا يحل إبهام رمز آخر ، لماذا تكتب رمزاً ؟

ـ وهل الفن جريمة شائنة حتى تحقق معي هكذا ؟

ـ لا . . . ولكن الفن قد يكون نابتاً على أرض الجريمة ، يغطيها ، أو يضيئها ، ولذا السؤال .

ـ إذن يكون جرس إنذار وعلامة خطر ؟

ـ تماماً

ـ ومخيفاً ؟

ـ بالضبط

ـومثيراً لغرائز حيوانية كغريزة الإفتراس مثلاً ؟

ـ صحيح

ـ لذلك أكتب رمزاً

ـ لم أفهم

ـ كجميع المحققين . . . إني أكتب رمزاً حتى لا تغضب رموز حركة التحرر في بلادي ، فالرموز لا تقرأ إلا إذا كان اسمها هو العنوان العريض ، أو كانت الكتابة سهلة كالقتل أو مزدانة بصورها أو صور أطفالها أو خصومها أو صور السيارات الحديثة أو مبيدات الحشرات ذات الرائحة

العطرية . . . وإذا ما قرأت شيئاً مرموزاً صدفة أو غفلة أو قبل نوم القيلولة ، فإنها سرعان ما تمل ولا تكلف نفسها عناء المتابعة أو الفهم .

ـ ولكن ألا يمكن أن يكون بين حراسها ومرافقيها وبوابيها وطباخيها أو مستشاريها العسكريين أو الأمنيين أو الماليين من يتابع لها الإنتاج ويقدم لها التقارير ؟

ـ ليس هماً . . . فهي لا تختار بطانتها عادة إلا من نوعية رديئة ومنحدرة فكرياً ، أكثر رداءة وأقل موهبة منها بكثير. . . والبطانة والعيون والعسس لا تقرأ بل تقدم تقاريرها إعتماداً على سائقي التاكسي وبائعي الفلافل لأن زبائنهم من الفقراء (مصدر الخطر) . . أو على تقلبات أمزجة زوجاتهم أو أصهارهم أو حبيباتهم . . . الخطر يكمن في حالة واحدة ، حالة أن يتبرع فنان رديء وفاشل ومعقد ومطرود من صفحة التسلية في جريدة يومية ، بأن يقدم لك معروفاً غير مطلوب أو إساءة بسبب الحسد وضيق العين فينصب نفسه ناقداً على حسابك ويقدم في صحيفة يومية دراسة عن الخلفية السياسية الثورية لعملك الفني (القصيدة أو القصة أو الخاطرة) . . . وهو كذاب . . . لم يكتشف الخلفية إكتشافاً بسبب وعيه المميز ، وإنما سمعك تتحدث عنها إليه ، بعدما أعياك البحث عن مستمع ملائم . . .

حينئذٍ تكون الداهية الدهياء . . . ولذلك أكتب رمزاً .

ـ ولكنك تتعب قارئك وتقلل من عدد قرائك .

ـ ليكن ، ومن حقي أنــا أن أقــول للقــارىء : أنت غلطان يا أخي . فأنا لست سبب تعبك وعنـائك ، ابحث عن السبب . لا تـزر وازرة وزر أخـرى . . . وإذا مـا قـل قـرائي فإن ذلـك لن يزعجني فلست مـرشحـاً لأي منصب يحتـاج إلى جماهـير وانتخابـات ، ثم إذا أصبحت مـرشحـاً وأهلاً ، أي عندما أكف نهائياً عن الكتابة والقـراءة مثلاً ، فإن التزوير والرشوة والوعود الكاذبة ـ كالوعد بتحرير المرأة مثلاً ـ والعنتريات والعصبيات العنصرية والقروية والجغرافية والقبليـة والمذهبيـة والطبقيـة كلها جـاهزة لتغـطيتي وتأمـين فوزي .

ـ لم نتفق .

ـ وهـل اتفقت مع الـرمـوز ليصبحـوا رمـوزك ؟ هـل استشارتك العائلة المالكة عندما عينت الملكة وولي عهدها ؟

ـ ولكن إنتـاجك الفني مقـدر له أن يصبـح جـزءاً من شخصيتي وشخصية الأجيال القادمة ومن حقي أن أعترض إذا لم نتفق .

ـ جزء من شخصية الأجيال ! بدأت تحلم ! هذا حلم

يحتاج إلى رمز يكثفه . . . أفضل مثال على أنك مغشوش ومتفائل أكثر من اللازم هو أبو جهل وديك الجن الحمصي أو خليل حاوي من منهم الأكثر حضوراً في شخصيتك ؟

ـ لماذا لا تقول القرآن ؟

ـ أحسنت . . . لأنه ليس إنتاج فنان مثلي أو أحسن مني بدرجة أو درجات . . إنه فوق إرادة الرموز وأبعد من مرامي فكرهم . . . ولو لم يكن كذلك لشطبوه ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ . . لقد حاولوا كثيراً ولكنهم أيقنوا بالإستحالة وقبلوا التحدي .

بالمناسبة هناك متخصصون في علم (إعجاز القرآن) يقولون بأن أفضل المعجزات ما شابه أكمل فنون عصره . . . حيث يتعداه المعجز اكتمالاً بشكل يفوق قدرة الإنسان . . . يتحداهم. تحداهم عيسى (ع) بالطب وكانوا بارعين فيه معتدين بما وصلوا إليه . . والآن هم طامحون للتحكم بملامح الجنين وقد تفوقوا في فن الإبادة تفوقاً كبيراً ، وتحداهم موسى (ع) بالسحر وهم متجاوزون لمستويات سحر الماضي بمسافات وتحداهم القرآن باللغة التي هي أصعب الصناعات رغم عموميتها ، بل بسبب هذه العمومية . . . كان العرب قد ظنوا أنهم استنفدوا كل

طاقات اللغة على التعبير الجمالي . . فجاء القرآن ليقول لهم إن هنـاك طـاقـات في اللغـة هي بمنـأى عن طمـوحهم واقتدارهم ، فأذعنوا بعد مماطلة ومكابـرة . . والحاجـة إلى التعبير الجميل بـاقية والـذوق باق ومن هنـا القرآن معجـزة خـالـدة ولا خـوف عليـه ، الخـوف علينـا ، . . معجـزة خـالدة . . . واللغـة خيمـة من ورق أخضـر لـه حفيف لا ينقطع ، وكلما أتاها خريف حمل وعداً بربيع أخضر وصيف مثمر وشتاء يكتمل فيه عـري الأشجار لتـلامس ماء الحيـاة مسامَّها وتبزغ البراعم ريَّـانة راويـة ريَّاً رويَّـة . . . . . هذا ليس درسـاً في اللغة . . . هـذا تمييـز للقـرآن عن إنتـاجنـا المتواضع المحاصر .

ـ لماذا تكتب ؟

ـ لأشبع حاجة شخصية ، ليس فيها اعتداء على أحد ، تعودت الكتابة منذ أن مدحوني في قـريتي أيام طفـولتي على مواضيع الإنشاء . أصبحت حاجة عضوية . . أكتب أيضاً لأبقى قـريباً من القـرآن ، آتي منه إلى الكتـابـة وأذهب من الكتـابة إليـه . . . ثم إني لكثرة أمـراضي ومعاينتي لبـرودة الأطباء في تعاملهم مع المرضى والأمراض والجراح ، لم أعد أجد غير اللغة ـ الرمز ـ وسيلة للإبقاء على الوجع ولون الدم وعلى طقطقة الأرواح وهي تصعد حتى تبلغ الحلقوم بسبب

الجوع أو البرد أو الحنين إلى الأرض والأهل أو الإنحياز إلى العدل أو بسبب المرض أو الجهل وأحياناً بسبب اليأس أو الهرم والإنتحار . . .

ـ إنك ذاهب إلى حتفك . . . سوف تشي بك العصافير إن لم يفضحك النقاد .

ـ لا تهتم . . إني أموت بالتقسيط مثل كثير من بلاد الله والأمم والحضارات والأحلام .

٢

أمنيات مشروعة

ـ تحررت قريتك فماذا أعددت لها ؟

ـ سوف أذهب لأستمتع بحريتها .

ـ لا يجوز لأنك لم تشارك .

ـ هذا في شرعكم ، أما في شرع قريتنا فـالفرح مبـاح للجميع كما الحزن .

ـ وهل حزنت حتى تشارك في الفرح ؟

ـ كتبت حزني .

ـ ولكنهم كتبوا دمهم .

ـ وأنا كتبت حزني على دفاتر دمهم حتى لا يضيع دمهم

ـ أوَ يضيع ؟

ـ بلى . . يضيعه الورثة . . يقال عندنا إن الحاج فلاناً ربى ثروته (من غنم وماعز وأرض وزيتون) بدم قـلـبه ولكن وريثه فلاناً ضيعها لأنه لم يتعب في جمعها ، وفي شرعنا يحجر

على البالغ غير الرشيد (السفيه) كما يحجر على المفلس .

ـ ولكنهم سوف يعاتبونك .

ـ والعتاب حب . . كنت أخشى عتابهم ومرارته . . أما الآن فلا

ـ لماذا ؟

ـ لأني سوف أذهب إليهم خالياً من الأمجاد بريئاً من الحسد والطمع والإدعاء والمصادرة . . . هنا أعطاني البعد حياداً ، وهو أفضل من سرقة أفعال الآخرين وأمجادهم وأقل من مشاركتهم .

ـ لماذا لم تشارك وبقيت بعيداً ؟

ـ بصراحة . . ؟ لأن فطرتي شوهها الفكر الثوري .

ـ ولماذا لم تتشوه فطرة الشيخ راغبُ حرب ؟

ـ لأن الثورة هي غير الفكر الثوري ، الثورة تطابق الفطرة ويطلع من لقائهما فكر يهدي ولا يضيع ، والفكر الثوري الذي يأتي من طريق آخر وفي موعد آخر يشوه الفطرة ويشوشها ، لأن الفكر الثوري منفصل غير متطابق ، مراوغ ، والثورة أصيلة .

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » . .

ـ كيف ستتعامل ـ بالمناسبة ـ مع الشيخ راغب حرب ؟
ـ آه . . . إنه شيخي .
« كنا نلقاه بظهر السوق عطاشاً فيروينا
من ماء الكلمات
جوعى . فيطاعمنا من أثمار الحكمة
وينادمنا بكؤوس الشوق إلى العرس النوراني » .
. . كان يقول :
إذا غسلتُ بالدماء هامتي وأغصني
فقد توضأت وضوء الأنبياء .
كان يريد أن يموت ، كي يعود للسماء
كأنه طفل سماوي شريد
قد ضل عن أبيه في متاهة المساء
كان يقول : كأن من يقتلني محقق مشيئتي . .
ومنفذ إرادة الرحمان
لأنه يصوغ من تراب رجل فان
أسطورة وحكمة وفكرة » .

سوف ألبس خرقته ، وأقرأ أوراده وأشم ورده ، وأذهب إلى قبره في اليوم الثامن من كل أسبوع لأسأله عما رأى . . . . يا شيخي : هل صدق الفؤاد ما رأى ؟ وأعود أكثر شفافية وفقراً ورقة وذوقاً وحكمةً وتقوى .

ـ شيخك وهو أصغر منك سناً ؟

ـ وهل قرأت بطاقة هويتي وهويته لتعرف الفرق بين عمرينا ؟ تريدون أن تعتقلوا الزمن في دفاتر حساباتكم ، ما معنى الشهادة إذن ؟ إن الشهادة هي أن يكبر الشهيد كل لحظة ألف سنة مما تعدون . . ألا تقرأ القرآن ؟ إن الشيخ راغب شيخي ، أنسيت أن رسول الله ﷺ ، في آخر لحظات عمره الشريف أصر على إنفاذ جيش أسامة وجعل تحت إمرته وهو ابن سبعة عشر عاماً وجوه الصحابة وشيوخهم ؟ أنسيت أن رسول الله (ص) في بدء الدعوة اختار علياً (ع) الفتى اليافع وزيراً من بين شيوخ بني هاشم حتى ضحك الأبله أبو لهب ساخراً وحرَّض أبا طالب على ابنه ؟ لا تكن أبا لهب . . . الشيخ راغب شيخي وشيخ أشياخي والذي يجد في ذلك غضاضة فليبلط البحر . . .

ـ لماذا تصر على التأكيد على الشيخ راغب وما من أحد ضده ؟

ـ من الناس ، صحيح ، لا أحد ضده ، بكامل الصدق ، أما من غير الناس من النخب ، فلا . . الشهيد له ألف أب وصديق ، أما الشاهد فهو يتيم ، ولو بقي الشيخ راغب شاهداً بدون شهادة ، لكانت الحسابات اختلفت . . . لقد كانت عباءته واسعة ـ رحمه الله أما أنا فقد

رأيت خرقته تحت العباءة ، قبل أن ينشر عباءته ، دخلت ، عاينت ، شاهدت ، رأيت ، انكشف لي ، تجلى ، تذوقت وتطامنت .

أنا أغبطه والغبطة شراكة أو احتمال شراكة أو رجاء شراكة وهو دمث لطيف .

ـ أين ستقف عندما تصل القرية ؟

ـ في المسجد ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنه الجامع . . . لا أثاث فيه ولا نقوش ولا هُجر في القول . . جدرانه عارية تغري بتعرية القلب ، قديم ، من زمن التين اليابس والحياء والحب والبيادر والحصاد . . . ويقع في وسط القرية ، في نقطة الإرتكاز ، والتوازن والعدل والرؤ ية ، ويطل على كل المسافات والأحياء .

ـ الوسط الأفلاطوني ؟ لا إفراط ولا تفريط ؟

ـ بل الوسط الإسلامي ، الحق ، حيث لا وسط إلا الحق ولا حساب للمسافات ، للتوسط بينها ، الحساب يبدأ من الحق وإليه ، في كل الإتجاهات .

هل هناك حق نسبي وحق مطلق بين الأهل ؟
هل هناك حق مطلق بدون عصمة ؟

وهل هناك من يدعي العصمة ؟

إذن لنقل ، لو كان هناك حقان نسبيان ، بين الأهل ، أحدهما راجح والثاني مرجوح . . . فالمفاضلة مقدمة للوقوع في خداع البصر . . . والخلاف بين الأباعد ، غير الأهل ، أوهام . من يشغل نفسه بالتمييز بين الأمين والمأمون ؟ بين غورباتشيف وأندروبوف ؟ بين ليكود وراكاح ؟ بين ريغان ومونديل ؟ . . إذا شغلت نفسك بالتمييز فإنك لا بد واصل للتمييز بين فرانسوا وميتران ، بين حسني ومبارك وواجد نفسك في المحصلة مع علي بن أبي سفيان الخارجي الحروري . . .

ـ إنك تحاول توازناً صعباً !

ـ يا أخي نحن في فرح . . . وهل هو أمر هينٌ أن تستيقظ صباحاً في قرية عاملية فلا يصفعك وجه يهودي قبيح يصادر بسمة الصباح وقهوته وحبيبات نداه ؟ من أراد أن يغرق في دمه فليغرق . . ولندع للعريسين أن يفرحا ويخصبا .

ـ ربما غلبتني لغتك ولكن قناعتك لم تعدني .

ـ اللغة غلاَّبة ، لأنها منفصلة ، والمنفصل لا يبالي بالأعماق ، يجعل السطح عمقاً والجلد قلباً ، ولنتذكر أننا عندما امتشقنا أعماقنا وجردناها من غمدها طردنا اليهود ـ

طردوهم ـ ولو تركوهم للسياسة لكنا الآن نحتفل بذكرى الوحدة مع إسرائيل . لقد كان قصارى السياسة أن تهرول وراء أعماقنا ، وراء اللغة وراء عاشوراء وأبي ذر والقسام والشيخ راغب ونزيه قبرصلي وبلال فحص . . . .

كفانا حواراً . . وإلا أشعلت لغتي وأحدثت طرائق لا تبقي ولا تذر . . . لملم أسئلتك وتوضأ أو تيمم أو اغتسل بضوء يأتي من مشكاة ، خلسة ، واذهب إلى المسجد ، وسط قريتنا ، قف هناك ملياً ، لا تتكىء على حائط أو جدار ، فأنت في غاية التوازن ، راوده عن قلبه . . سيعطيكه . . تنسَّم ريحه ، رائحة عرقه ودخانه البلدي ، تروح بقايا صلاته ونجاواه . . . تزود من شميم لغته وسجاياه ، سائل دمه عن فرح الوصول . . . وأنا أضمن لك الوصول . . . ودعني .

***

٣
العصافير

في جبل عامل ، جنوب لبنان ، كما في غيره من بلاد الله الواسعة ، عصفور أسمه الدوري . . وهو مقيم لا يريم صيفاً ولا شتاء . أما السمان والفري والسلوى والعضيض وأبو زريق وأمثالها . فتأتي إلينا هناك صيفاً أو شتاء أو ربيعاً أو خريفاً ، عندما تضيق في وجهها أبواب الرزق أو الأمن في مواطنها .

كانت تأتي بأعداد كبيرة أيام كان القمح والتين كثيراً .

وكان الأمن كثيراً ولم تكن أدوات الصيد تتعدى فخاً بسيطاً وصائدة مطاطية نادراً ما تصيب .

الأولاد يصطادون بعض العصافير ، والسادة الأثرياء والوجهاء يصطادون الكثير من الفري والسلوى والسمان والزرازير . . . . وما تبقى منها يعود إلى موطنه . . .

والبعض النـادر يستطيب البقـاء في ديارنـا . . . يقولـون : عضيض لاف : وفـري لافيـة . . ألـخ . الآن التـين نـادر والقمح نادر والأمن أندر .

والجميـع يملكـون بنـادق صيـد . . أو بـاسـتـطاعتهم تملكها ، بعدما سرقها الجنود اليهود وأهدوهـا إلى ضباطهم ليسمحوا لهم بنقل جهـاز الفيديـو المسروق . . . والجميـع لديهم سلاح لم يستطع اليهود اكتشافه ، كثير منه كـان مخبأ وظهر بعد رحيل اليهود جديداً لامعاً ، والقليل منه استعمل بفعالية عالية وغير مألوفة في هـذا المقلب من الدنيـا بل وفي العـالم ، ولا في هذا المنقلب من تـاريخ حـركـات التحـرر والتحرير .

يقـول البعض مفسراً . إن اليـد عـلى الـزنـاد ، اليـد الموصولة بالقلب والعقـل هي الحاسمـة ، لا الزنـاد ، لأن الزناد لو ترك وشأنه أو ليد مفصولة فلربما قتل الأب أو الحبيبة أو حامله نفسه .

نعود إلى العصافير المهاجـرة التي كانت تحسـد عصفور الدوري ـ المواطن ـ الذي لا يتعرض الأولاد إلا قليلاً لصيده أو لأفراخه في أعشاشها ، لأنه ليس جميلاً كالعصافـير الآتية من بلاد الأجانب وليس لحمه لذيذاً كلحمها . .

الآن قلت العصافير المهاجرة وبعضها انقرض بسبب قلة الأمن وقلة الإنتاج الزراعي الكلاسيكي . . والعصافير لا تأكل الفريز لحموضته ولا البامية أو الملوخية ولا (بندورة) أو خيار البيوت الخضراء - غرين هاوس -
نادراً ما تأتي . . . وهكذا تفرغ الأولاد للدوري وأعشاشه وفراخه . . أين يذهب هذا المسكين وهو لم يتعود الطيران لمسافات بعيدة . . ؟ ولا يحب السفر والترحال ؟

***

٤
أحلام العصافير

قالت عصفورة الشوك لفرخها وهي تدغدغه :
استعد . . . غداً أبدأ بتعليمك الطيران
نقرها بمنقاره نقرة في بطنها وقال :

لا أريد أن أطير ، كل الأولاد الذين مروا من هنا ورأوا عشنا نظروا إلي بعطف وتركوني . . . كانوا أرحم من ذلك الحمار الذي أفقدني إخوتي بصوته الكريه . كان بأيديهم بنادق صيد وبنادق حرب . تشاوروا فيما بينهم ، فيما إذا كانوا ينتظرونك حتى تعودي ليصطادوك أولاً ؟ وقر رأيهم على أن يتركوك تربيني وبعدها يأخذونني إلى القفص ويصطادونك بسهولة ، عندما تأتين لزيارتي . . . وعلق أحدهم قائلاً : دعوها حتى تربيه ولن تفلت منا وانصرفوا . . إذن مصيري إلى القفص ، فلن أتعب نفسي بتعلم الطيران . . . ربما أتوا الآن لأخذي فدبري رأسك

قالت العصفورة :

إذن أعلمك الطيران بسرعة ، نبدأ الآن ، وأنت تشد همتك وتواظب حتى نطير معاً .

قال الفرخ :

عبث هذا الكلام ، أين نهرب ؟ فوطننا صغير المساحة والسلاح في أيدي الكبار والصغار ، وهم منذ سنوات بعيدة يتدربون ، لقد أصبح بإمكان الواحد منهم أن يصطاد بطلقة واحدة ، نوايا وأحلام وعواطف وأسرار وآلام وآمال من يشاء ساعة يشاء دون أن يراه ، دون أن يراه أحد ، دون أن يرى نفسه ، دون أن يرى القتيل نفسه ، إنهم يقتلون عشرين أسرة دفعة واحدة ، فيها نساء حوامل ونساء عرائس وصبايا تحب وصبيان ينتظرون أفلام الكارتون وأطفال رضع يبكون فيما أمهاتهم مشغولات بتحضير حليب المساء لهم ، وعجائز لا يفرقن بين لينين وأنور السادات أو بين كامل الأسعد وجورج حاوي أو بين شارون وصدام . وعمال قد عادوا لتوهم من عملهم ونزعوا جواربهم ريثما تأتي الزوجة أو الكنة أو كبرى البنات بمغطس الماء الساخن وتلاميذ في الصف النهائي من الدراسة الثانوية ينتظرون نهاية العام الدراسي حتى يدخلوا الجامعة ويقرأوا شعراً كثيراً ويتكبروا

على بنات الضيعة اللائي يبادلنهم الكبرياء . . . ومارة لا يعرف الواحد منهم الآخر . . . وكلهم ، كل الذين يقتلون ، لو قدر لهم أن يعيشوا أعماراً أخرى إلى أعمارهم لما كانت أسماؤهم أو صورهم لتشاهد على صفحات الجرائد . . يقتلونهم جميعاً بضغطة خفيفة من سبابة مبتورة أو مقطوعة العصب ، لأنهم يريدون قتل رجل واحد ، لا يعرفونه ولم يروا وجهه ولا وجوه أولاده ، ولا يعرفون لماذا يقتلونه ؟ يقتلونه من أجل عيني رجل واحد . . . ربما يموت ذلك الرجل الواحد ، ولكن الواحد الآخر يكون أول المعزين وأنشط الباكين والأكثر حزناً بين المشيعين والأبلغ بين المؤبنين شعراً أو نثراً ، وإن لم يكن يحسن الشعر أو النثر أو أي شيء نافع أو جميل ، فإن هناك من يكتب له . . . . أو لا يموت ذلك الواحد فيأتي الواحد الآخر مهنئاً بالسلامة ويستنكر ويطلب معاقبة المعتدين بعد كشفهم ، في تصريح صحافي ، وبعد مدة يتفق الواحدان على واحد ثالث قد كان إلى زمن قريب مضى صديق واحد منهما وليس خصماً للآخر .

وأضاف الفرخ :

أتركيني . . . لا تتعبي نفسك . . . وأنا لا أريد أن أتعب نفسي ، لماذا أتعلم الطيران ومصيري إلى القفص

الذي هو أفضل بكثير من الموت بطلقة عاقلة أو طائشة ؟

قالت العصفورة وهي تضحك وتحاول أن توهم نفسها بأنه مجرَّد مزاح وكلام عيال . . قالت :

يا ويلي من أين لك هذه الأخبار وهذه الأفكار ؟ ستقول لي أيضاً إنك لن تتعلم الزقزقة ، تراث الأجداد ، ولن تعرض نفسك لشمس الصباح حتى تزهو ألوان ريشك ويصبح منقارك بلون الورد الجوري ؟

قال الفرخ :

العيال كبرت يا ماما ، لم يعد هناك أسرار ، لقد أصبح بإمكان الباشق أن يراك وأنت مشغولة ليلاً بقضاء حاجتك وليس مضطراً أن يكلف نفسه عناء الطيران والإنقضاض عليك من شاهق لافتراسك ، بل يوجه إليك نفساً من أنفاسه ينزلق على أشعة (ليزر) ويصل إلى دماغك في ثوان فيسلبك إرادتك وتذهبين إليه طوعاً وعلى عجل تؤدين له التحية وتسألينه ما إذا كان يفضل أكلك بريش أو بدون ريش ، وحتى لا تزعجي خاطره تنتفين ريشك بنفسك إذا ما اشتهاك بدون ريش ، وتتمددين بين مخالبه ليقطعك كيف يشاء ، وتعتذرين لعدم تمكنك من تقطيع نفسك وتوفير عنائه .

أما عن الزقزقة ، فلا داعي للتعب أيضاً .

إن بإمكانك أن تعلميني لوناً واحداً ، هو لون الأجداد ، تراث ، كلاسيك ، بينما في القفص يعلمونني ، بواسطة الكاسيت ، ألواناً من غناء الكروان والكناري والبلابل المتعددة الجنسية من ماليزيا إلى نيبال إلى فيجي إلى سان فرانسيسكو إلى سانتياغو إلى رأس الخيمة

وأما عن زهوريشي وورد منقاري فلا تقلقي ، فما زال في هذه المدن ، مدن الباطون المحترق والحديد الذائب والدم الرائب والمياه المقطوعة ، ما زال فيها فسحات تتسلل منها الشمس .

ولسوف ينشب ألف عراك بين صاحبي وجيرانه بسببي ، لأنه سوف يزعجهم يومياً بوضعي مع القفص ، على حافة شرفة منزله ـ غرفته ـ في الطابق العاشر من البناية رقم ١١ من المجمع السابع عشر من الحي السابع ، وأنتعش أنا بالشمس ورائحة مبيدات الحشرات وآخذ في غناء لا ينقطع وكأني أحد مطربي أيام زمان (عبده الحامولي أو صالح عبد الحي أو عمر الزعني أو الشيخ سلامة حجازي) . . . . مما يثير أعصاب ابن الجيران ـ الشبّيح ـ الذي قضى ليلته ساهراً على المتراس حتى لا يهجم السمك

على البحر . . . وينهض شاتماً متوعداً . . وتدور المعركة باللسان ولا يلبث السلاح أن يشهر وتسحب الأقسام استعداداً للرمي الذي يخطىء هدفه عادة ويصيب غيره ، وتكاد تقع الجريمة من أجلي ، وتضطر قيادات التنظيمين للقاء ظهراً وحل الإشكال وإصدار بيان يحاول أن يؤكد حسن النوايا فيكشف خبثها وسوءها . . . ولكن الله يلطف بقذيفة مدفعية من مرابض الأعداء - حتى حين - تسقط بين البنايات فيهرب الجميع إلى الداخل . . .

إذن سوف تأتي الشمس إلي ، تزورني وتلمّع ريشي ولا داعي للذهاب إليها .

قالت العصفورة :

يا ولدي . . الشمس على الشجرة في البرية مع نسيمات تهب وتداعب أغصان (الزنزلخت) غير الشمس في منزل من الباطون البازاري في حي مكتظ ، في مدينة محترقة ، وما يزال الإحتراق فيها يحترق وسيبقى يحترق إلى أن يفقد قابلية الإحتراق فيبحثون عن مدينة أخرى ليحرقوها .

قال الفرخ :

أنت بطرانة يا أمي أي شجر هذا !

ألا ترينَ إلى الباطون كيف يزحف ؟

كأنك تحافظين على حلم لا تدرين أنه انقضى أجله ؟

إن أحلامك ماضوية . . . بينما الواقع يسرع خطاه نحو المستقبل . ألا ترين ؟ ألا تسمعين ؟

قصف متبادل وغير متبادل

قتال واقتتال .

قنص وكمائن ،

سيارات مفخخة وبنايات مهدمة ،

دولار مجنون واقتصاد عاقل أو معاق ، .

وهجرة من المدن إلى الريف ومن الريف إلى المدن ، بدون قانون ، وباطون في الريف لإيواء القادمين وللمحلات النوفوتيه والديسكو والسوبرماكت وتغيير زيت السيارات وصيدليات لبيع الأدوية الفاسدة بأسعار مضاعفة . . . ثم إن الناس قد أخذوا احتياطهم سلفاً ، وكما استبدلوا بحليب الأمهات العائدات من الحصاد على شوق لإرضاع أولادهن ، علب حليب تاترا للفقراء وكيكوز للأغنياء ، وبالهندباء البرية هندباء مدجنة ، وبصوت المؤذن الآتي مثل الندى ، الأذان المسجل ومكبر الصوت الكهربائي ، وبمزهريات الحبق والد حنون صور القيادات والكوادر

والشهداء الذين عرفوا لماذا استشهدوا والذين لم يعرفوا ولا يبدو أنهم سيعرفون . . . وبالحب والحياء والإنتظار الجميل ، التعرف على العروس أو العريس ، صدفة ، بالصورة ، عند بائع الأحذية ، والعروس أو العريس غائب أو غائبة ، في أم القيوين أو أستراليا أو الدانمرك أو جزيرة بروني ويتم إجراء (مراسيم ـ بروتوكول) الزواج وكالة في المحكمة الشرعية ، في صباح اليوم التالي كما يتم تسجيل سيارة في دائرة الميكانيك أو عضو جديد في حزب مضت ليلة واحدة على طرده من حزب آخر لأسباب مسلكية . . . هكذا بدون زغاريد ولا شراب ورد ولا حلويات ملفوفة بمحارم ورق جميلة ولا منافسة بين أم العريس وأم العروس أو خالتها إن كانت أمها قد توفيت .

كذلك استحدثوا نوعاً من الأشجار التي تعيش في الظل ، لا تحتاج إلى الشمس ، أو لا تحتاج الشمس إليها ، زرعوها في بيوتهم ، وإن كانت البيوت ضيقة ومستمرة في ضيقها ، فإن الأشجار المدجنة هذه مطيعة مثل القيادات المدجنة ، تسمح لهم بالتحكم بنموها طولاً وعرضاً وحتى بأنفاسها ، وإذا لم يكن بإمكان أحدهم ، بسبب ذات اليد أو ذات الجنب ، أن يزرع شجرة من هذا النوع ، فإن الأشجار البلاستيكية تعوض . . .

إذن هنا شمس وشجر ، ولا وجع رأس في البحث اليومي عن حبات الدخن أو القنبز أو مخبأ يواريني عن عيون الأولاد الأشقياء أو رجال الأمن الأتقياء .

فجأة انتبهت العصفورة على لغط .

نظرت ، رأت صبيين قادمين باتجاه الشجرة التي فيها العش . . . سكتت وغمزت لفرخها بعينها وغمزت بطنه بمنقارها ليسكت فسكت .

جلس الصبيان يتحدثان .

قال الأول :

مصيبة يا أخي ، السنة الماضية كان قرب دار الحاج أحمد أكثر من خمس شجرات مشمش ، وكنا نسرق ما يكفينا ويبقى لهم ما يكفيهم قصُّوها . . . . !!!

قال الثاني :

يبنون بيوتاً ، بيوت ، بيوت ، والأرض ضيقة ، فيقطعون الأشجار ، وإذا بقيت الحرب مستمرة فلن يبقى في هذه القرية شجرة واحدة . . . لماذا لا يقيمون وحدة ؟

أسمع أن البلاد العربية واسعة وخصبة وفيها نفط وسكانها قليلون وشجرها كثير . . لماذا لا تكون هناك وحدة ؟

قال الأول :

وحدة يعني بدل كل الرؤساء والأعلام ، يكون رئيس واحد وعلمٍ واحد وتلفزيون واحد ؟ كيف ! . . . لا . . . . ليس جميلاً . . ثم إن هناك كثيرين يريدون أن يصبحوا رؤساء ويجدون أن ذلك صعب ولا يبقى أمامهم إلا أن يقسموا البلد إلى بلدين أو بلدان ليصبحوا رؤساء قطعة تصبح دولة ، لها علم ونشيد وطني ومياه إقليمية وإقتصاد أعمى ، تابع ، ولكنه يحتفظ لنفسه بهامش من الإستقلالية فيما يعود للثروة الحيوانية كالعصافير والجراد والكلاب والجرذان .

قال الثاني :

لو استطعت الوصول إلى الرؤساء لألقيت عليهم هذه القنبلة وتحسس قنبلة يدوية متدلية من وسطه .

قال الأول :

من أين أتيت بها وماذا ستفعل بها ؟ ما نوعها هجومية أم دفاعية !

قال الثاني :

دفاعية أمريكية ، صادرتها من جعبة أخي الذي يعمل

مرافقا لقائد سياسي ، نقابي ، عمالي . . . . أخي لديه الكثير ، في المرة القادمة سوف أصادر صاروخ « روكيت لانشر » .

قال الأول :

ما رأيك ؟ غداً عيد رمضان ، لو ربطناها بذيل هرة وفجرناها أمام منزل الحاج أحمد عقوبة له على قطع شجرات المشمش ؟

وحانت منه التفاتة إلى العش قال :

هذا عش ، أنظر إلى ذيل عصفورة الشوك . تعال نفجر القنبلة في العش . .

عصفورة الشوك لم تصدق ولم تطر .

لو طارت لطارت وحدها وبقي فرخها الذي لم يتعلم الطيران بعد . تناول الولد القنبلة من وسطه ، فتح أمانها ، وقال لرفيقه : لنبتعد ونرمها من وراء ذلك الحائط لأنها دفاعية . ولا بد من ساتر . . .

أرادا أن يبتعدا . . . انفتلت قدم حامل القنبلة على كومة تراب . . انحل التراب تحت قدمه ، سقط أرضاً وانفجرت القنبلة .

***

٥

هوامش

في القرن الرابع الهجري . . . كتب مجنون رسالة إلى زميل له قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله ، وأبقاك الله ، كتبت إليك ودجلة تطغى ، وسفن الموصل ها هي ، وما يزداد الصبيان إلا شراً ، ولا الحجارة إلا كثرة ، فإياك والمرق فإنه شر طعام في الدنيا ، ولا تبت إلا وعند رأسك حجر أو حجران فإن الأخبر يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . . وكتبت إليك لثلاث عشرة وأربعين ليلة خلت من عاشوراء سنة الكمأة» (الحجارة سلاح الصبيان ضد المجانين وسلاح المجانين ضد الصبيان)

وكتب مجنون آخر إلى مجنون مثله :

« وهب الله لي جميع المكاره فيك ، كتابي إليك من الكوفة حقاً حقاً ، أقلامي تخط ، والموت عندنا كثير ،

إلا أنه سليم والحمد لله ، أحببت ليعرفه إعلامكم . . ذلك إن شاء الله » « لم يبق غير الجنون » . أدونيس .

يقول الماوردي . وهو يتحدث عن أسباب غموض الكلام « وأما اللغز فهو تحدي أهل الفراغ وشغل ذوي البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم ، فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعاً ولا يفيد علماً ، فهم كأهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسامهم إلى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد أجسامهم ، لا يكسبهم حمداً ولا يجدي عليهم نفعاً » (أدب الدنيا والدين ص ٦٢) .

سامح الله الماوردي فقد عاش مختلطاً بالسلطة والسلطان فلم يكن مضطراً إلى إغماض في رمز أو لغز .

ولا عانى مطاردة ولا فراراً ولا عزلة ولا ابتزازاً ولا حساباً على نية أو صواب . . .

« ماذا أصنع ؟
أدعو الظَّلَمَةْ
أن يضعوا الظلم عن الناس ؟
لكن هل تفتح كلمة
قلباً مقفولاً برتاج ذهبي ؟

ماذا أصنع ؟
لا أملك إلا أن أتحدث
ولتنقل كلماتي الريح السوَّاحة » .

صلاح عبد الصبور
أيار ١٩٨٥

التهابات في الغدة الوطنية

تنويعات
على الأبيض

أ ـ البحر الأبيض ، المتوسط ،

البحـر . . . ولبنان من اللَّبـان أو من اللبن لبياض جبالـه شتاءً . . .

ماذا قلت للنورس ؟

ماذا قال لك النورس عندما حط عـلى أرنبة أنفـك ثم طار وحط على القلوع ؟ لوَّحت له ولم يبادلك !

ماذا بينك وبين النورس ؟

أو كنت تخمِّن أن البحر يكتم سرك ؟

متى تدرك أن قلباً واحداً ، قلباً واحداً ، وحده يصلح مخبأ للأسرار ؟ وأن ما يـدلف من قلب إلى قلب ، سهواً أو عمـداً ، ليلاً أو نهاراً ، عن خبث أو عن سـلامة نيـة ، في زمن الحرب أو في زمن السلم ، مصيره إلى البحر ؟ يشع في عيني سمكة ، يغري صياداً ، تدخل السمكة في الشبكة ،

يصفِّق الصياد فرحاً ، يقول سرَّك لكل الصيادين ، والصيادون يقولونه لكل بائعي السمك ، وبائعوا السمك يقولونه لكل الطباخين ، والطباخون يقولونه لكل سيداتهم وزبائن وجبات الغداء في مطاعم شواطىء المتوسط من صور إلى قرطاج . . . وتتحدث عنك وكالات الأنباء ، تقول : إن شرطة الآداب ضبطتك متلبساً بحب الوطن ، والوطن متلبس بحبك ولكنكما لا تتواصلان .

ب ـ الأبيض السيف

هل قتلت ؟ هل باشرت بقتل ؟ هل تسببت بقتل ؟ هل حوَّلت عيداً إلى مأتم ؟

إذن على أي دم تتكىء لتصل ؟

قلبك هذا لا يكفي . . . لا يصل . . . بدَنك رقيق جداً وركيك . . . ومحطات الوصول صقيع ، يشتد محطة بعد أخرى . . .

هل تستطيع أن تعتقل قرية بكل قمحها وتبغها وأحلام صباياها ؟

هل تستطيع أن تغرق مدينة بدموع نسائها ؟
هل تستطيع أن تقتل طفلاً بلعبته ؟
هل تستطيع أن تكون ذئباً وتثغو ؟

هل تستطيع أن تكون ليلاً في نهار بلا شمس أو نهاراً في ليل بلا قمر ؟

هل تستطيع أن تأمر مرافقيك بمصادرة نجوم السماء وطبعها نحاساً وقصديراً ومنحها لأبناء عمومتك وبواب منزلك وسائق سيارتك وكاتب خطاباتك ومصورك وطبيبك الخاص ومصفف شعر خادمة عقيلتك وكلب صديقتك . . . بمناسبة ختان ابن أختك ؟؟؟

هل تستطيع أن تلف لحم الوطن ـ ما تبقى من لحم الوطن ـ شطائر بالسمن والكاتشاب ، تبيعها في أوليات الفجر للسكارى العائدين من خمارات القطط السوداء ؟

هل تستطيع أن تنتف ريش عصفور حي ؟ ثم تأمره بالطيران ! إذن استقل . . . . . إبحث عن وطن آخر . . . أو ليبحث عنك وطن آخر . . . . أو ليبحث عن غيرك الوطن . . . استعر وطناً ، وما طل عندما يطالبك الآخرون برد العارية . . . لا تقترض . . . لأنك إذا ما استهلكت الوطن القرض فلن تستطيع سداداً لقرضك يحكمك القاضي المأفون بالسجن في الهواء الطلق . . خذ وطنك معك إلى حيث ترحل . . . أبعث له برسالة باليد . . . قابله سراً في دار للسينما أو دار للمعاقين أو خمارة نفياً للشبهة . . .

احتفظ في غرفة نومك ـ هل لك غرفة نوم ؟ـ بصورة لخرائب الوطن . . .

استقل . . . . أقل أمك من قلق يساورها عليك بلا داع ولا طائل .·. . . عودتها على سماع نشرات الأخبار . . . . ومع كل انقلاب يحدث ، حتى لو كان في برمودا ـ تخاف أن تكون من المعتقلين من رجال العهد البائد وتتمنى أن تكون عضواً في المجلس الثوري . بماذا أساءت لك حتى تسيء لها هكذا . . اتقِ الله يا رجل !!!

***

ج ـ الأبيض الأبيض

تستريح الآن من طعنة بيضاء . . . تأوي إلى ظل وردة بيضاء . . . . تتألق في كفن أبيض .

نساء الضيعة « **كأنهن بيض مكنون** » يرفلن في ملاءات بيضاء ، يسقينك من أكفهن الرخصة أو الخشنة البيضاء ، قطرات من : (بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) . . . و ينتظرن حتى تصحو . . . كفاك بياضاً !!!

***

دع عنك وطناً لا يعرف يوماً أبيض . . .

تعال إلى ورقة بيضاء . . تعال إلى حجر أبيض
تعال إلى غزالة بيضاء . . تعال إلى امرأة بيضاء . . تخرج من ذلك الحجر الأبيض ، ترتدي شالاً أبيض ، ترقد على هذا الورق الأبيض .

تعال إلى حبر أبيض ، يخرج من عين بيضاء ، ينسكب عند قدم بيضاء لامرأة بيضاء ، تنام على ورق أبيض ، أتت من حجر أبيض ، تحت سحاب أبيض . . . .

تعال إلى رصاصة بيضاء ، تطلع من بندقية بيضاء ، تخلف دخاناً أبيض ، وتوقظ امرأة بيضاء أتت من حجر أبيض ، استلقت واسترخت على ورق أبيض ، واستحمت بحبر أبيض وغطت في نوم أبيض ، نشرت غطاء رأسها الأبيض ـ قد يكون الأبيض الغطاء والرأس معاً ـ وكشفت عن أسنان بيضاء وغلب بياض عينيها على سوادهما . . . . وقد كانت منذ ولدت حوراء حوراء ناعسة الطرف مغناجاً كما لو كانت قرية قد تحررت لتوها من اليهود وعلى ذراعيها وشم أخضر .

***

تدخل الرصاصة البيضاء في الجسد الأبيض ، يخرج دم أبيض من البدن الأبيض للمرأة البيضاء المستلقية على ورق

أبيض . وتبكي المرأة البيضاء التي أتت من حجر أبيض واستحمت بالحبر الأبيض ، تبكي دمعاً أبيض يجري على وجنات بيض وتمتلىء الورقة البيضاء حبراً أبيض ولا يستطيع الرجل الأبيض المستريح في كفن أبيض أن يقرأ المكتوب على الورقة البيضاء . . . فتبيض عيناه من الحزن .

***

عندما ماتت المرأة البيضاء ، لفوها بكفن أبيض ، ونصبوا على قبرها شاهدة بيضاء وزرعوا وردة بيضاء ، واستيقظ الرجل الأبيض وقرأ المكتوب بالحبر الأبيض على الورقة البيضاء وعاد إليه بصره من هول الحزن .

***

أيقظته زوجته من نومه وقالت : حان وقت الصلاة

فرك عينيه وقال : كان الوطن هنا معي منذ قليل وأشار إلى فراشه . قالت الزوجة : هذا الوطن كم يثير غيرتي ؟

رسالة الريح :

وعاذلةٍ تغدو علي تلومني
على الشوق لم تمح الصبابة من قلبي
فما لي إن أحببت أرض عشيرتي
وأبغضت طرفاء القصيبة من ذنب

فلو أن ريحاً أبلغت وحي مرسل
حفي ، لناجيت الجنوب على النقب
فقلت لها أدِّي إليهم تحيتي
ولا تخلطيها ـ طال سعدك ـ بالتُّرب !!!
وجيهة بنت أوس ـ من شواعر الأعراب

تقاسيم
على الأسود

« . . . وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتمـوا الصيام إلى الليـل » البقرة ١٨٧ .

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفـاً ألوانها ومن الجبـال جدد بيض وحمـر مختلف ألوانها وغرابيب سود » الملائكة ـ ٢٧ ـ

كانت امرأة قد أصبحت لتوها أمّا لصبي ، نظرت إليه بشغف ورأته جميلاً ، وكان بعلها الـذي يكسب قوت يـومه بيومه ، قد خرج بـأمر منهـا إلى السوق ليبتـاع حلوى . . . قالوا له في السوق : ألم تقرأ نشرة أسعار العملة في جريـدة الصباح ؟ قال : إنه يقرأ الجرائد في نهاية الأسبوع ، عندما يـذهب لتنظيف مكتب صـاحب المعمل . قـالوا لـه : لقد

ارتفع الدولار ، فاشترى نصف الكمية التي قررتها زوجته .

مازحه بائع الحلوى وسأله كثيراً عن « ولي العهد » وعن لونه ولون عينيه ، ومن يشبه أمه أو أباه ؟ تدخل الصبي (صانع) الدكان وقال : لماذا تخلفون أولاداً في هذا الزمن ؟ ليصبحوا صناعاً في الدكاكين ؟

نهره معلمه ، صاحب الدكان ، وأعطى الرجل ما اشتراه من حلوى . . . هم الرجل بالعودة ، سار خطوات ، سقطت قذيفة على مرأى منه ومسمع ، خاف وعاد ليحتمي تحت سلم بناية عالية جداً ، استمرت القذائف تتساقط، أخذ هو يلتهم الحلوى ، لو سأله أحد وهو على هذه الحال ، لمن هذه الحلوى ؟ ولماذا تأكلها ؟ لما أحار جواباً ، لأنه كان مستغرقاً في الأكل ولو توقف وفكر قليلاً في أي سؤال عن الحرب وآثارها ومتى تنتهي ولصالح من ؟ أو عن الحلوى ؟ لمات من الخوف . . . « **ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها** » ٧٥ النساء .

***

عندما تأخر ، خرجت زوجته أم الصبي ، التي كانت قد أصبحت أماً لصبي لتوها ، ألقت نظرة إلى الشارع العام من باب الغرفة (الزنك) . . . كان الشارع ما يزال ضيقاً

لا يتسع لدبابة ، مليئاً بالحفر المليئة بالمياهْ المليئة بالقاذورات . . . قبل أن تتبين تماماً هوية القادم من فم الشارع ، سقطت قذيفة ولم يبق من القادم شيء . . كادت أن تصرخ هلعاً على زوجها والحلوى ، ولكنها تذكرت أن القادم كان امرأة تتشح سواداً حتى قدميها . . . . فكثير من أزواج جاراتها وأولادهن وبناتهن وإخوانهن وأخواتهم ، قد ماتوا فاتشحن سواداً . . وهي لم تفقد إلا ابن خالها وبنت خالتها وابن بنت عمتها وبنت ابن عمها ، وأخا زوج أختها وزوجة أخيها. وأخت زوجها . . اتشحت سواداً مؤقتاً في كل هذه الحالات ، ثم نضت السواد وارتدت مزركشاً وابتاعت قميص نوم (تايواني) أبيض استعداداً ليوم الولادة ، يوم الدلال والغنج والأبهة والحلوى والراحة من غسيل الأطباق والملابس وتحضير الطعام والذهاب إلى سوق الخضار ، بعد الظهر لشراء البقايا بثمن أقل ـ خاصة بعد ارتفاع الدولار ـ وها هو الآن مولود ذكر يكاد ينبت شارباه ويبدأ بمعاكسة بنات الجيران ، وها هو القميص الأبيض يستريح على البطن التي انفتحت عن كنز .

أوصدت الباب حتى لا تأتي الشظايا ، دقت جارتها التي تتشح سواداً على الفاصل الخشبي بين غرفتيهما بجماع قبضتها . . كأنها لا تعرف أن هناك وليداً وأنه نائم ! قالت

المرأة ، دون أن تنتظر جواباً لقرعها : لا تتركيه يجوع كثيراً يا بنتي ، ألقميه ثديك بين ساعة وساعة ، لا تنتظري بكاءه . لا تعوديه على علاج الغضب والبكاء بالحليب . . . هل عرفت ؟ ماتت الحاجة بهية منذ لحظات وهي عائدة من شغلها في معمل الكارتون ؟ مسكينة . . لن يتشح أحد عليها سواداً لأنها آخر من تبقى حياً من أفراد عائلتها .. آخر العنقود يا بهية !!!

حركت المرأة النفساء بطرف إصبعها ذقن وليدها الرضيع ، فتح عينيه وفمه معاً ، وحرَّك شفتيه بحثاً عن الإصبع ، ألقمته ثديها الأيمن واتكأت على كوعها الأيسر وأسدلت على عينيها أجفاناً سوداء كقطع من الليل ، وراحت في حلم فيه وطن هادىء بدون قذائف ، وسلام وأولاد وبنات كثير وفقراء لا يتحدثون كثيراً عن الدولار وثياب ملونة يدخل فيها الأسود لوناً من الألوان لا يستغرق الجسد ولا تثقله الذكريات الحزينة .

عندما كان الثدي الأيمن ، يدر حليباً ، كما لو كان ساقية أو نهراً ، ومع الحليب يسري دفء منمنم يستقر في طرف الكوع الأيسر خدراً عذباً . . . كان الكوع الأيسر لاصقاً بالأرض ، بالحصير ، واصلاً بين جسد المرأة (التي ولدت لتوها وهي الآن ترضع وليدها وتنتظر زوجها والحلوى

وتسمع أصوات القذائف) وبين الأرض . . سقطت القذيفة ، ماتت المرأة ، انفلت الثدي من فم الرضيع ، وانفلت الكوع وهبط الجسد . .

لم يتشح أحد سواداً عليها .

قالوا للولد الرضيع عندما صار يافعاً يعمل في دكان لبيع الحلوى : إن أباه كان قد مات بقذيفة أخرى بعد ما التهم الحلوى كلها .

اتشح الولد سواداً وراح كل ليلة يستغرق في حلم فيه آباء وأمهات وإخوة وأخوات لا يتقاتلون ، وإذا تقاتلوا لم يجرح أحدهم الآخر ، وإذا جرحه لم يقتله ، وإذا قتله اعترف بذنبه وألقى سلاحه وتوارى . . . لو كان له إخوة لتعارك معهم كثيراً ثم تصالحوا قبل أن يعود أبوهم من شغله ، إذا كان أبوه ما يزال حياً . . وطن فيه ثياب ملونة وحلوى . . . إذا توفي أحد فيه لهرم ، أو بالسرطان أو بحادث سيارة اتشحت كل نساء الحي أو القرية عليه سواداً . . وتعطلت الأعراس إلى ما بعد أربعينه . . .



قميص
الوطن

« ألم نجعل الأرض كفاتاً » المرسلات ٢٥

« ألم نجعل الأرض مهاداً » النبأ ٦

« والله جعل لكم الأرض بساطاً » نوح ١٩

« حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . . . » التوبة ١١٨ .

ينكمش الوطن . . . . . تتراجع معدلات الزواج، تتقدم معدلات الطلاق ، يكثر الموتى والشهداء والأيامى والأيتام ، وينكمش الوطن ، يرتفع الدولار ، يهاجر الشباب ، وتتراجع معدلات الإنجاب ، وينكمش الوطن ، **« ألم نجعل الأرض كفاتاً . . . أحياء وأمواتاً ؟ »** . . . . تضمهم ضماً على ظهرها وفي بطنها . . وتضيق بهم . . يضيقون بها . . . يصبح البساط خرقة خَلِقة ، يصبح المهد مَشْهَداً . . تصبح الخرقة قبضة . .

إبحث لك عن منفذ ، فإذا ما خرجت ، سلمت بريشك ، فسوف تموت حنيناً . .

« وقـد زعمـوا أن المحب إذا دنـا
يَمَـلُّ وأن النـأي يشفي من الـوجـد
بكـل تـداوينـا فلم يُشْفَ مـا بنـا
على ذاك قرب الدار خير من البعـد
عـلى أن قـرب الـدار ليس بنـافـع
إذا كـان مـن تهـواه ليس بـذي ود »

ابن الدمينة

ـ يـا أم هاني من أين اشتـريت هـذا القمـاش قميصـاً لابنك ؟

من هو هذا البائع اللئيم الـذي ما انفـك يغشك منـذ أخذ هاني يميز جمال الأشياء ويطلب قميصاً جميلاً ؟

ـ صلي على النبي يا أم علي ، رجل آدمي وإبن حلال .
ـ يا مسكينة دائماً يضحك عليه التجار الغرباء ، هـذا القماش ينكمش على الغسيل .
ـ لا يا أم علي ، هـاني يا صـلاة النبي ، ينمو بسـرعة وتضيق عليه ثيابه

. . . كان هاني وحيد أهله ، وكانت أم هـاني تظن أن

البيضة التي تقليها له يومياً بالسمن البقري ويأكلها وحده برغيفين من خبز الصاج ، تجعله ينمو بسرعة حتى تضيق عليه ثيابه بين شهر وآخر . كانت قناعة أم علي الخياطة عكس ذلك ولكنها لم تستطع إقناع أم هاني بوجهة نظرها الناتجة عن خبرة طويلة بمشتريات أم هاني من القماش . . فشلت أم علي في جعل أم هاني تكف عن الإستسلام لطلاوة لسان التاجر الغريب الذي كان يقنعها كل مرة بأن هذه القطعة لم يبق معه غيرها من ذلك النوع لأنه لاقى إقبالاً شديداً . . رغم أن كثيرين شهدوا لأم هاني بأنهم ضبطوا هذا التاجر مرات عدة وهو يخبىء قطعاً أخرى من ذلك النوع من القماش ويخفيها في طيات بضاعته . . كانت أم هانى تتصور أنها لو صدقت أم علي وكذبت التاجر الغريب فمعنى ذلك أن تكون البيضة غير مؤثرة وأن هاني لا ينمو بالسرعة التي تتصورها بفعل البيضة .

ظل التاجر الغريب يستفيد من البيضة وأم هاني ويستفيد معه ابن الجيران الذي يصغر هاني بسنتين مما جعله يستغني عن شراء القمصان وينتظر حتى ينكمش قميص هاني بعد الغسيل ويأخذه منه . صار هاني أباً ويكاد يصبح جداً وما زال ينخدع كما كانت أمه وأكثر .



استعارات

« واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين * إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين » المائدة

« قابيل » باق وإن صارت حجارته
سيفاً وإن عاد ناراً سيفه الخِذِمُ
وردَّ « هابيلُ » ما قضاه بارئه
عن خلقه، ثم ردَّت باسمه الأمم

السياب

يقول ابن الأثير ما ملخصه « في سنة ٤٩٧ هـ سار الفرنج إلى حرَّان بعدما سمعوا بالخلافات بين معين الدولة (سقمان) وشمس الدولة (جكرمش) والحرب بينهما فأرسل كل منهما ألى الآخر يدعوه إلى اللقاء لتلافي أمر حران ، فاجتمعا على الخابور وانتصر المسلمون وأسر قائد الفرنج والقمص برودويل ثم اختلفوا على السلب والغنائم وتصافوا للحرب فقال سقمان لأصحابه يردهم عن حرب إخوانهم : « لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمهم في اختلافنا ولا أؤثر شفاء غيظي بشماته الأعداء بالمسلمين » ورحل لوقته وتابع القتال في الطريق ضد الفرنج وانتصر عليهم » - ابن الأثير الكامل في التاريخ - ج ١ ص ٣٧٥ - ويقول ابن خلدون : « كان بين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسقمان صاحب حصن كيفا حروب وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه (ابن أخي سقمان) بسبب خوفه من الإستيلاء على ما بيده تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٣ . ومن عيون الأخبار لابن قتيبة : « المدائني قال : لما اشتغل عبد الملك بمحاربة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم فقالوا : قد أمكنتك الفرصة من العرب بتشاغل بعضهم ببعض فالرأي أن تغزوهم في بلادهم فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم ودعا بكلبين فأرش بينهما (أي أفسد بينهما وحرَّش)

فاقتتلا قتالاً شديداً ، ثم دعا بثعلب فخلاه بينهما فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه وأقبلا على الثعلب حتى قتلاه فقال لهم ملك الروم : هذا مثلنا ومثلهم فعرفوا صدقه وحسن رأيه ورجعوا عن رأيهم » .

« أخاك أخاك إن من لا أخاً له كساع إلى الهيجا بدون سلاح » يقول النحاة : إن أخاك هنا منصوبة على الترغيب . . . ولكن مرارة ما دفعت طه حسين ليقول بأن أخاك منصوبة على التحذير مما يقتضي أن تكون كلمة بكل سلاح مثال بدون سلاح .

ويقول معروف الكرخي مفصحاً عن حالنا من الخوف من الوضوح والصراحة واللجوء إلى الإغماض :

« أبكي إلى الغرب إن كانت منازلكم
من جانب الشرق خوف القيل والقال
وأقول بالخد خال حين أذكره
خوف الرقيب وما بالخد من خال » .

أيار ١٩٨٥ م .

شبهت لهم

قصيدة لوجهـك ، وأغنية لعينيك .
أغنية طويلة لعينيك .
مدى لصوتك وسورة الفتح لقلبك .
قلبي لقلبك .
جنوب لدمك . . دم لجنوبك
وشم أخضر على خدك
تاريخ لجراحك
بنادق لأناملك
رصاص لعدوك
غبطة لأحبائك
فرح لأمك . . وكل أوراقي للريح

**

كل السادة الحـواة ، قارئـو الكف والفنجان، السجرة

والفرِّيسيُّون . . الأصدقاء الخبثاء والأعداء الطيبون .

الإخوة الأعداء والأعداء الإخوة

أصدقاء اليوم أعداء الغد وأعداء اليوم أصدقاء البارحة . الخطباء ، الشعراء ، المغنون . . الجيد منهم والرديء . . الحاذق والمغفَّل .

إلى البحر

ولك الأنهار والجداول وطرابين الحبق وأعماق البحار والسوسن والنرجس البري والأقحوان والزيتون والزوفة وعصافير الدوري وقطوف الذرة وعناقيد العنب وأوراق التبغ وعطر التراب والمواويل والعتابا والميجنا والجرح العريض الموغل في صوت محمد رفعت ودعاء كميل .

***

عصر السابع عشر من شهر شباط ، ثلاثة أشهر تفصلنا عن السابع عشر من شهر أيار ، ذكرى زواج العوانس بمباركة الزَّمْنى والعجزة والكُسَحاء .

كنت تدخل صيدا متكئاً على عصاك . . ونزيه قبرصلي يمازحك . وكان أهل صيدا يرشون الأرز وزهر الليمون . . تقع حبات من الأرز وزهر الليمون على رؤوس الجنود وأنواط الطاعة على أكتاف الضبَّاط .

يخجل الجنود وضباطهم من هذا الحب الشعبي الذي ما ألفوه ، وما عملوا ولن يعملوا شيئاً ليألفوه .

كل الورود وكل حبات الأرز كانت لك .

وكل الزغاريد والهلاهل .
وللآخرين شوك ورصاص على الأقفية وهراوات . .

**

عصر السابع عشر من شهر شباط
كانت أمك تصر على سماع آخر الأخبار عن الجنوب .
كانت ضيفتي . . كنت ضيفها في بيتي .
كنا ضيوف دمك
أحسست ـ وأنا الحريص على سماع نشرات الأخبار ـ أن الأخبار ليست لي هذه الليلة . . . ليلة المجد حتى مطلع الفجر . . .
الأخبار إذن لا تخصني . . إنها الآن لمنتجيها .
ولكن المنتجين عامة رحماء طيبون يتسع مجدهم لنا العاطلون هم وحدهم الطمّاعون .

***

عصر السابع عشر من شهر شباط
كان اليهود يخرجون مذعورين من التوراة ويدخلون

بحر الظلمات .

وكنت تخـرج من ضـريحـك ، من مكمنـات .
تستعرضهم حفاة عراة يولون الأدبار
وتقـرُّ عيناً . . . يـأكل الخـطباء ألسنتهم . . يتـراجـع
الوجهاء إلى الوراء . . . ويأتي الفقراء

***

السابع عشر من شهر شباط
يخرجون وتدخل
ينزلقون عن الجلد وتقرع بوابة القلب
يذهبون وتأتي
يأفلون وتشرق
لم يدخلوا أبداً ولم تخرج أبداً
لم يأفل لك نجم ولم يبزغ لهم نجم
لم يأتوا أبداً ولم تذهب
شبهت لهم .

***

هو قلبك الممنوع على غير الله وأهل الله
إنه قلبك المتربص على بوابة الجنـوب يمنع الـطواغيت
والطواويس أن يتسللوا إلى قلب جبل عامل . .

يبقون على الجلد . . وينـزلقون عنـد أول تكبيرة وأول حجر . وبحركة من قدمك ، بركوع واحد ، يسقـطون في القـاع . قاع البحـر ، قاع التـاريـخ ، قـاع اللغـة ، قـاع اللعنة .

يا عزيزي :

لا أربعـون ولا عام ولا عُمُـرُ الآن صمتُك في ألحـاننا وتَرُ »

١٧ شباط ١٩٨٥

جبشيت
هذا أوان عطرك
وأنا آت

نحي ضفائر القرنفل والوزَّال والدحنون .
افتحي مخازن غلالِك
افتحي بوابة صدرك الذهبي
نادي كي يضوع البابونج . . وإذا أراد الياسمين أن ينام فلينم
وليذهب هذا الحارس الليلي إلى فراشه
ليذهب هؤلاء الأطفال إلى فراشاتهم
ليسرعْ هذا القمر خطاه إلى البحر
لِتَرْتَدِ هذه السماء عباءتها
ولينشرْ هذا الليل ما تبقى لديه من ستائر
واعديه إلى ليلة أخرى
ولْتكُفَّ هذه الحمامة عن الهديل
ولْينتظر الشعر تحت النافذة .

إني آت ، هذا أوان عطرك . . . قـالت لي القُبَّرة التي ضيعت عشهـا وحـطت عـلى القلب ونقَّـرت عـلى بـاب الذاكرة .

***

ضعي هذه الزيتونة عن رأسك .

وليـأت الوسن ليـأخذ هـذه الملائكـة عن ساعـديك ، وهذه الأعياد والأعراس عن ذيل فستانك .

أضيئي البرتقال وعناقيد الذرة وانشري مناديلك .

أحكمي أغطية جـرار السمن والدمـع والدم والـزيت والماء والمخيض

أيقـظي قفير النحـل . . شـاع الأريـج . . هـذا أوان عطركِ .

ولتسترح شتلة التبغ .

أما كفاها سهراً على درب العين ؟

***

افتحي بوابة صدرك الفضي . . جرَّحتني الفضة .

افتحي هذا الدفتر الأبيض

فقد اكتملت في دمي القصيدة .

ها هي تتقاطر من عيني مثل حبيبات العسل .

تخرج كقافلة نمل من رؤ وس أصابعي
اشتعلت أصابعي . . فاكتملي
اكتحلي ، انهضي ، لأستريح وأغفو
اطرحي النعاس ، عجلي .
فالعيَّارون يرصدون مفارق شعرك ، ومراياك ، وقوارير عطرك وأساورك . . . ومواعيد نومك وصُرَّة كُحلك .

وأربطة جدائلك
خبئيني تحت الغلالة ، في ساقية الحزن ، في ملتقى الألوان ، في مشاتل الفرح ، في مقاتل المحتلين في عينيك .

***

افتحي هذا الدفتر الأخضر
إفتحي بوابك صدرك الرملي أو الصخري أو الشجري أو الوردي يا فاتنتي بالبور من أرضك
تعالي نشتبك . . هنا على حافة ذلك البيدر المهجور .
تعالي وأنا المغلوب

***

افتحي شباكك الليلكي
مدي يدك ، سرِّحي ذؤابة هذا الغجري الطاعن في الترحال والشوق . . . تأتيه الحال ، تغلبه ويفرح . . .

افتحي خاصرتك المعشِبة . . هبت الرياح اللواقح .
طوِّقيني بذراعك أوْ أطوِّقـك . . ودعي الزهـور تنعقد وتعِدُ .



افتحي طفولتي .
ها أنت . . تتفرع منك كل المنحنيات والأسرار
ها أنت . . . وتلك قطة سوداء كنت أخافها وتخافني
تلك عين « الأزرق » والرجولات الخفرة المتفتحـة على دروبهـا تلك عين « الكـروم » . . . وارتجف الصبي عندمـا صبت أمه الماء البارد على جسمـه الطري أمـام الغاسـلات وقرر أن يبدأ الحياء .

تلك سنونو هدَّمتُ وكرها فعششت في جفوني
وتلك عليقة واعدت « أبا الحن » في ظلها ، فجاء صياد طويل القامة ببندقيته واصطاد الشحرور فهرب أبو الحن .

وهذه المرأة التي نذرت هريسة على ديك هندي وكعك العباس إذا نجحت في الإبتدائية .

وتلك صبيـة عملت شايـاً عندمـا نجحتُ في الثانـوية فاتهمتها صبيـة أخرى بـأنها تفكر في أمـر ما . . . ضحكت وقالت : لا . . إنه سيسافر

وهـذا علي الـذي كـان لا يمشِّط شعـره وقـال لي : لا تسافر . . . ابق هنا ، نزرع تبغاً ووردا ونعلم الأولاد القراءة والحسـاب ونقرأ شعـراً ونندهش . . . إذاً سـافرت فقـدت القدرة على الدهشة .

وهذه فاطمة التي فركت كفيها بورقة تين لتزيل مـرارة التبغ عنهما، ونـظرت إلي فأعشتهـا الشمس فوضعت كفهـا فوق عينيها وقالت : خسرناك .

هل أمضي في التفاصيل ؟ استحضر كل السطوح وكل الشبابيك ؟

غلاَّبة . . . غلبتني أيتها القاتلة !

***

افتحي هذا الكتاب المغلف بشرشف شامي .
افتحي باب مسجدك الذي لم يكتمل حجـارة واكتمل صلاةً وتاريخاً .

فوهة بندقيتك لأمسح بقايا البارود
مقابرك ، بسـاتينك ، لأنـظف الشواهـد واقتلع الفطر والشوك من حول جذوع نخلاتك .
قِراب سيفك لأهنأه بشحمة عيني
قِرب دمك لأتوضأ .

افتحي باب شيخك . . . فالدراويش اشتاقوا
عباءَتِه . . فقد قتلني هذا القيظ برداً .
مصحفَه . . . لنقرأ الإسراء والفتح والأحـزاب والفجر
و« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشـركين »
افرشي سجادته . فقد قامت الصلاة
افتحي لي قلبه ، امنحيني سره ، افتحي قبري ، فصلي
كفني . . .



افتحي وصية بلال .
ياقة قميصه الأبيض (أهلاً بالعريس) . . . فـالفصل
صيف وشمس المتوسط حارقة ورطوبة الزهراني دبقة .

حقائب مالك وهاني وعلي
بُقجة صبحية ، زوّادة خديجة وصُرَّة مريم .
وتلك زاد حبيب مزمع سفراً
أكان يحلو بلا زاد له السفرُ ؟



قـولي للشيخ حَسن أن يـرفـع أذان الجمعـة فقـد
انتصف النهار .
ولكن الشيخ لم يأت بعد !

إذن يا حسن فالشيخ راغب عما قليل يأتي
لا بد أن يأتي ، جبشيت عاشقة والجمعة معشوقة .
حسن لم يؤذن .

ذهب حسن في إثر الشيخ (خاله ويعرف شكل خطاه واتجاه قلبه وعينيه) . . . ذهب حسن إلى الشيخ ، لم يـأتِ ولم يأت الشيخ . . .

« قطر الندى يا خال مهر بلا خيال
قطر الندى يا عين أسيرة الخدين
قطر الندى . . قطر الندى ، قطر الندى » .
عاد حسن مع الشيخ في قبيل من الشهداء
اتكأ الشيخ على عكازه وافتتح خطبة الجمعة
ما زال يخطب . . . انصتوا
أحسنت يا شيخنا ، أحسنت ، أعـد ، لله أنت وأبوك وأمك وصوتك وبلدك ودمك . . . أحسنت أعـد ، لافُضَّ جرحك

***

هذا شيخ تفرَّغ للحب
لم يعد له شغل إلا أن نحبه .

***

جبشيت . . . يا فاتنتي بساحة العناتر والمصـلى وسطح

القبو ووادي العصافير وأم عرموش .

يا غلاَّبة

يـا كثيرة السهـر ، يا قصيـرة الليل ، يـا طـويلة القـد والبال ، يا ميَّاسة في العين وفي الذاكرة ، يا مدرسة الزيتون والشهداء والأيتام .

أغلقي هذا الدفتر الأحمر . . . سباني البنفسج

أريـد أن أقر ، لا أريـد أن أكتب ، هـذا وجـه كثيف وساطح لا يُكتبُ . . وأنا أستقيل .

من يعطيني قطرة دم ؟

فـأجعـل هـذا الحبـر أكـثر عـطراً وشعـراً ووهجـاً وعشقاً ؟؟؟

***

كتبت على بعد ونية سفر أيلول ١٩٨٥

عامان على الشهادة
وسبعة على الشهود

بمناسبة ذكرى استشهاد شيـخ الشهداء الشيـخ راغب حرب وانتصار الثورة الإسلامية

لعينيك هذا الربيع الآتي
زهر اللوز
وفرح النحل
وألوان الفراشات .
لعينيك ربيع عامنا هذا والعام الذي مضى وما انقضى وكل عام
ولعينيك مطر الربيع ومطر الشتاء .
يا مطرُ
يا زمانُ   يا عصرنا
يا ذاكرتنا . . يا ندى
أيها الطائر المحكي والآخرون صدى .
يا لظى ، يا غضى ، يا رضى ، يا غضب

لعينيك صيفنا والحصاد وليالي القطاف وقمر الصيف
والمواويل وأغاني الأعراس وأحزان المآتم
والفاتحة في نهاية كل فاتحة . . . يا فاتحة
لعينيك خريفنا
سقوط الأوراق وعري الأغصان وشوقها للبراعم
والخصب بما بذرت
يا بن الفلّاحين
يا بن الفلاح ، يا شيخ الملاح ، يا زين الملاح ، يا سيد
الملاح يا سيد القلب

***

كان التاريخ واقفاً على رأسه تعباً ووجهه إلى الجدار
ورقبة الجغرافيا في قبضة التوراة
وكانت الأرض قبض الريح ، رغم كل أغاني الأرض
والأقصى رهن عود ثقاب
وكروم عاملة نامت نواطيرها
وكان نخيل العراق نحيلاً . . . ويزداد نحولاً
وغدت جبال سيناء كثيباً مهيلاً
ولكن ناشئة الفجر أقوم قيلاً .

***

« وإلا حضرت شاهنشاه آريا مهر »

«شالوم »
ألم يأتك يا كلي العظمة أن لا غالب إلا الله ؟
وهوى عرش الطاووس .
سقط الطاووس منتوف الذيل والجناح .
ارتدى التاريخ عباءته وعمامته وامتطى صهوة كتابه من قم ميمماً شطر حراء .
أدلى دلوه في بئر بدر
غسل الأجساد الطاهرة في الطف
واراها شغاف القلب وروّاها ماء العين .
نضت زينب ثوب الحداد
شرب العباس ماء بارداً . . راحمه الأطفال فأهـرق ما تبقى من ماء القربة على رؤ وسهم فتصايحوا جذلى وفروا .
انتقلت سكينة إلى دار القاسم . . أنجبت بنات وبنين كثراً .

وشب عبدالله الرضيع . . . التأم الجرح في عنقه
صار يخطب الجمعة في حسينية جبشيت
ويقضي أوقات القيلولة في مسجد الشرقية .
ويحلم بالقدس .
خرجت الجغرافيا من الذاكرة
هبت الرياح اللواقح وتطايرت أوراق التوراة

مع أجساد المارينز وأصابع بلال وخاتم الخطوبة
صار الأقصى ينام على وعد ويصحو على حلم
وأقعلت كروم عاملة
ضبطت عاملةُ ناطورها يسرق العنب، يقطفه قبل أوانه ، حصرماً ، يضعه في غير مكانه ويهرب من هرير الثعالب : . .

جنَّدت عاملةُ لواء من الأمهات اللواتي لم يأكلن حراماً وأرضعن حلالاً
والبنات اللائي لم يلوثهن يمين ولا يسار
ارتدين ملاءات بيضاء وعقدن لشيخهن الولاء واللواء
وغنين ، غنين « نحن بنات عامل . . قبضاتنا جنادل . . نحمي خطى المقاتل » .
وكانت تحف بهن كتائب من الفتيان
كأنهم اللؤلؤ والمرجان .
يأتون من بين دفتي قرآن
ومن طاعة الرحمن
ويهزجون
« على أعقابنا جيد حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا »
وهتف القسام : حي على الفلاح . . وأم الفلاحين في قرية يعبد

أزال بحجر صوان بقايا صدأ عن رصاصاته .. وعن ذاكرته وذاكرتنا .

أشار بفوهة بندقيته إلى الزمان فانحلت عراه .. توحَّد

وغمز بطرف عينه إلى المكان فاتحد المكان .

طلع من حلب إلى عكا .

وأشرق في يعبد

وجئت من جبشيت إلى الأربع جهات الأرض والتاريخ

إلى جنة عرضها السموات والأرض

استدعى القسام دليله العاملي محمد سعد ... وقاد مجموعته : خالد الإسلامبولي ، وسليمان خاطر ، وسليمان الحلبي والجندي الأردني ... التقوا راغب حرب عند بوابة الجدار الطيب أزمعوا أمراً ومضوا اليه

نسفوا كوخاً في الناقورة

شطبوا من الروزنامة (السابع عشر من أيار)

وضعوا خطاً أخضر وخطاً أحمر تحت السابع عشر من شباط

مزقوا وثائق كامب ديفيد

رشوا حفنة من دم بلال وأبي زينب على رتل من دبابات العدو فتبخرت .

رشوا حفنة من دمهم على وجه عاملة فاستيقظت

وأشرقت وأعشبت وأتلعت جيدها وأطلعت كنزها .

وعدوا الأقصى بنهر من الدم
فـارتفع الأذان من منـارتـه : الله أكبـر . . حي عـلى الفلاح
وقامت صلاة البنادق وارتفع دعاء الوحدة
تشابكت الأيدي وتفرّق الأعداء أيدي سبا

***

من أين يأتي هذا المجد ؟
من جرح واحد ؟
من شهقة واحدة ؟
يا جرحاً فصيحاً ، بالغاً ، بليغاً . . لأنت في تاريخنا أبو الجراح وسيدها وضمادها .
ولشهقتك الأخيرة أغنية لا تنتهي .
آية « نتهجي حروفها . . نتفرَّسُ
نلمح فيها بقايا فارس عاشق الخطى
نقرأ الخطوة والعشب والنخيل وأفقاً
نسجته التنهدات القصيرة
حيث لا يهدأ الحريق
ولا تنتهي الخطوات الأميرة » .

***

هلّا عرجت على طهران ؟
أستغفر الله . . إني لألوذ بها . . أصدر عنها وأردها
وإلا « فلا وردٌ ولا صدَرُ »
منها أتيت وإليها أذهب . . ومنها إلى كل الجهات نسافر
جنوباً إلى طلوسة وبني حيان والخليل
وشرقاً إلى كابل وآسية الوسطى
وغرباً إلى قلب الغرب وغده .
منها إلى مكة عدنا . . إلى الغاية والمنتهى
ولمكة عائدة عبرها إلى الغاية والمرتجى
ومنها الى القدس موعدنا وكل الطرق الأخرى مسدودة
بالنوايا والفراغ والعجز والنفاق
كربلاء محطة
هل من ناصر ينصرني ؟
بلى وعينيك
بلى والرضيع
بلى والسبايا
بلى والله يا أبا عبدالله .
منها . . من طهران إلى هذا الظل الظليل
ظل عاملة . . ظل عيني عاملة
عينا عاملة مفتوحتان ، عين على المحرَّر من أرضها

وعين على الأسير
عـين إلى البعيـد ، الى البعيـد ، عـلى قيـد القلب ، يسهدها البعد
وعين إلى القريب ، على القريب ، حـذراً من أمراض النصر
خشية أن يتلوث أو يمزق ثوبه الأحمر القاني الذي يختزن الخضرة ووعود الخصب أو يبدل بثوب مستعار ، قصير الأكمام ، عاري الصدر ، مدنس الأذيال عينان نضاختان . أختان ، شرفهما ، دمهما ، إرثهما ، القادم من عمرهما والباقي من أعبائهما شراكة . . على المشاع ، بدون حصص . . ولا وقت للقسمة لأن جل التركة ما زال مغتصباً .

أختان وطهران الأم .
لِنُحسنِ البنوة حتى نُحسنَ الأخوة
ولنُحسنِ الأخوة حتى نحسن البنوة
وحتى تستطيع الأم أن تحسن أمومتها .

**

طهران
منها إلى الشعر نأتي
عمود الشعر بدونها لا يسلم

منها أتينا إلى هذا الزمان
كنا خارجه وكان خارجنا . . والتقينا
كنا رهائن في أيدي أهله ، تحررنا ، صار زماننا وصرنا أهله
عرفنا مواقع أقدامنا .
ومنذ كان اليمين كان مضلة
ومنذ كان الشمال كان مضلة
ومنذ كانت الطريق الوسطى كانت هي الجادة
والوسط هو الحق والعدل لا التوفيق أو التلفيق بين باطلين .
كانت هناك غشاوة وكاد القفل على القلب أن يرين
إلى أن انتضى فارس العصر قرآنه ووجدانه
« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »
بارك الله روح الله
من القرآن نذهب إليه ومن القرآن يأتينا
وفي القرآن نلتقي ومنه نعبر في اتجاهات الزمان واتجاهات المكان . إلى مجد المستضعفين .
ولنعم المعبر والعابرون . . . هو ونحن

شباط ١٩٨٦

آخر
العنقود

عمت صباحاً يا علي
هلُمَّ إلى حضن أبيك
إلى شفتيه تلملمان الربيع عن جبينك
إلى عينيه ترعيان ريحان عذارك
هلُم إلى ذراعيها ، التي حملتك وهناً على وهن وما وهنت .
هلم إلينا
فقد أدخرنا لك قبلات كثيرة
ادخرنا بندقية لسبابتك
تربة حسينية لسجودك
ومسبحة لأنا ملك .
هلم إلى جبشيت
فقد خرجت من جراح شيخها ، من عباءة راغبها

موردة الخدين
خضراء الزيتون
سائغة الوقع كراية حرة تعابث الريح
عذبة كصوت بلال ، شهية كدم بلال
هلم إلى عاملة
الذي خرج من صلاة الجماعة ودعاء الوحدة إلى بدر
ومن بدر إلى الفتح بعيداً عن أحد . . بعيداً عن أيار ، بعيداً عن الناقورة .
بعيداً بعيداً إلا عن الله .

***

يا علي تعال إلى حبنا
أطلت ، أطلت ، عرِّج على القلب
يا غزال القلب لمرعاك فيك هوى
أنسيت هواك ؟
انتظرناك انتظرناك
وعدنا الصبايا
وعدنا أضرحة الشهداء بفاتحة منك ووعد
وعدنا الأتراب ، وعدنا المحراب ، وعدنا الأحباب
تعال واقطف أجمل وردة
تعال واخطب أنقى وأتقى صبية

تعال وصل الجمعة في الصف الأول
تعال إلى أيامك الأولى
إلى طفولتك الأولى
تعال وابق طفلاً ونحبك بدون حساب
تعال إلى درس القراءة
« **اقرأ باسم ربك الذي خلق** »
« **تبارك الله أحسن الخالقين** » يا علي . .
تعال إلى درس الحساب
« يا كوكباً ما كان أقصر عمره »

***

صباح الخير يا علي
صباح الخير يا جميل
صباح الخير يا مهذب
أيها الوعد، أيها الموعد
ألسنا على موعد ؟
قفز علي من على سريره وأوى إلى عيني أبيه فأسبلتا
قفز علي من على ذراعي أمه إلى أعناق الأحبة
قفز علي من نومه إلى صحونا
من وداعته إلى جسراتنا
من آيات القرآن إلى ريشة فنان ويراع شاعر

ورثاء معز ونواح صبايا وجنة رضوان .

***

آخر العنقود

علي آخر العنقود .
كل حبات العنقود حلوة
ولكن أن تكون فلاحاً ، أن تكون عاملياً .
احتياطي عرق في زمن السلم واحتياطي دم
في زمن الحرب
يعني أن تكون قرين التعب
قد لا تفرح بعرسك .
قد تكون عاشوراء هي فرصتك الوحيدة للفرح
تحزن ، تذهب إلى آخر الحزن فتفرح
يأخذك التعب بعيداً عن طفلك الأول والثاني والثالث
لا تختار له لون قميصه ولا حقيبته المدرسية
ولا تشتري أدوات لعبه
يختار الأرض ، ترابها وحصاها ، ملعباً وأدوات لعب .
وتأخذك الأرض
ويعتريك التعب ، تأكل العنقود بقليل من الوقت ويسير
من اللذة
تناديك شتلة لتزرعها أو ورقة لتقطفها أو سنبلة لتحصدها

تصل إلى آخر العنقود ولا تكاد تعرف طعم العنب
عند آخر حبة تستيقظ على احتمال فرح
تقرر ان تعوض في الحبة الأخيرة ما فاتك من حلاوة العنقود
وتصبح الحبة الأخيرة تكثيفاً لحلاوة العنقود
هي التي تبقى آثارها على الشفاه ، تحت اللسان
وفوق اللسان

ويبقى في العين لونها وفي المشتهى طعمها
تصبح هي الذكرى وهي الذاكرة .
علي آخر العنقود .
كان أحلى حباته . . كان حبة القلب
شب وأخذ يفيض حلاوة في الوقت الذي كان فيه الشيب قد استولى على شعر أبيه وأخذ أبوه يميل إلى الإستراحة من وعثاء السفر في الحقل والتراب والتعب
وكان لا بد له من رفيق يشاركه قهوة الصباح
على الشرفة في صباحات الربيع
والغداء في معزل ظليل قبالة الشمس صيفاً
أو قرب المدفأة على قيد شبر من مطر الشتاء .
فكان علي :

وألقى الأب نظرة إلى وجه علي

القى الفنان الذي قرر الإعتزال نظرة إلى لوحته الأخيرة التي رسمها بعناية وحنان وامتلأرضىً وحبوراً وترجل علي من عيني أبيه ـ أعيني جودا ولا تجمـدا ـ أكانٌ للّٰه فيـه سر ؟ ولم لا ؟

إختاره إليه طهراً نقياً كعروس في ليلة عرسها
وذاك العناء الطويل الطويل . . . أليس إمعانـاً في النقاء والتنقية ؟

إسألوا العروس . . . عما تعاني ليلة الحناء وما تكابد من آلام الإعداد ؟

ألم يكن العريس يزداد فرحاً بعروسه وتعلقاً بها
كلما ازدادت دموع أهلها المودعين ؟
ألا نـزهد في الأرض المحـررة عندمـا يكون التحـريـر سهلاً ؟. أو عندما ننسى مصاعب التحرير ؟

أي عين عرفته وما بكته ؟
أي قلب دخله فخرج منه ؟
أي بيت ما أحس أنه الثاكل ؟
أي أب لا يشتهي لولده أن يكون محبوباً كما كان علي ؟
أليس حبنا له تجلياً لحب الله له ؟
أليس هذا الحب سراً من أسرار الله فيه
« الذين تتوفاهم الملائكة طيبين سلام عليكم »

كان علي مريضاً بالسرطان .
ولكنه عوفي منه وكان لتضحية أخيه دور كبير في ذلك
كانت عمليته صعبة ولكنها نجحت
ولم يمت علي بالسرطان
مات لأن رئتيه أصابهما الكسل
وبالغتا في الطمأنينة إلى النصر
ومن ثم انتهى الكسل إلى التوقف عن العمل .
تعطلت الرئتان ومات القلب
وكان الجنوب مريضاً بالسرطان وكان سرطان الجنوب أكثر خبثاً ، طاردتموه في الصدر ، حتى ضاق عليه الصدر ، فغادر الصدر إلى الأطراف
إنه هناك في الأطراف قرب الصدر يترصد
يمسك بالمفاصل ، يرصد حركة الدم ، يضخ جراثيمه باتجاه القلب . . فحذار أن تكسل الرئتان حذار أن تتعطل الرئتان ، حذار أن تغفلا عن حركة الدم وعن حركة الجراثيم ، حذار أن تسترخيا ، حذار أن تتوهم رئة سلامتها بدون الأخرى . . حذار أن تنفصلا . .

وإلا عاد القلب إلى قبضة السرطان
ومات القلب
وماتت الرئتان .

يا علي . . . يا بعضنا الذي لم يصل
وداخلنا كدمنا .
يا علي . . وهذا أوان النرجس
إضمامة من النرجس ، أقمارها بعدد العيون التي بكتك .

وشتلة تبغ لأبيك وساماً على جدارته وتفوقه في الحب والإيثار والتضحية .

وانحناءة أمام الأم التي تحولت باريس في عمرها إلى حقل تبغ استعادت فيه ليالي السهر الطويل . . . وسلاماً[1]

شتاء ١٩٨٦

(١) ألقيت في حفل تابين الفتى علي فحص من قرية جبشيت وكان جميلاً واليفاً ظهر عليه مرض شديد يوم استشهاد شيخه راغب حرب وبذل أبوه من أجله بذلاً كريماً وأعطى مثالاً في الحب والإيثار .

خصوصيات

لماذا أبقى أكتب حزناً ؟

سوف أكتب ما يصلح أن يكون مفاتيح لثغر القارىء .
وإذا ما أبت ، وسوف تأبى ، العبارات الداكنة إلا أن تتسلل ، فإني أعتذر . . ماذا أفعل ، والحزن والفرح حولي ، بين يدي وأمام عيني ، وفي الداخل ، في حنايا القلب وزواياه ، يتجاوران ؟ من يستطيع أن يقف في نقطة الفصل ؟ هل هناك نقطة فصل أصلاً ؟

***

استدعيت لغتي وأعددت أصابعي للإشتعال .
وانتظرت الشعر في لحظة بين المطر والصحو ، بين الوطن والمنفى .
لم يأتِ . . . وحده أتاني الحزن ، وكان كثيفاً لا

يُكتب .

أخذ الأطفال كل أدوات الفرح وسافروا إلى جبشيت .

***

كـان لي صديقٌ يتقن الفـرح كما يتقن الحـزن . وكـان معنياً باكتشاف الصفات الثورية للحمـار . . وكنا نضحـك لطرافة اهتمامه . يأتي وكأنه عثر على كنز ويقول : اكتشفنا اليوم صفة ثورية جديدة . وأتحداكم أن تجدوا عند أيٍ قائد وطني مـا عند الحمـار من صفات ثـورية . . وأخيـراً كتب قصيدة باللهجة المصرية ضمنها ثماني صفات ثورية للحمار يقول في مطلعها :

أنا إسمي حمار معروف مشهور
شيخ الشُّطَّار
شغيل وباشيل الحميل تقيل مصـروفي قليل
أنا إسمي حمار

* * *

قال الرجل لابنه الصغير وهو يعظه : يا بني

تشـاءب الولـد وقال مقـاطعاً : بـابـا مـاذا بـين السـماء والأرض ؟

قال الرجـل هواء . قـال الولـد : لا . قال الـرجل : ملائكة . قال الولد : لا . قال الـرجل : شيـاطين . قـال

الولد : لا . قال الرجل : عفاريت . قال الولد : لا . قال الرجل : طائرات . قال الولـد : لا . . غضب الرجـل ، أراد أن يضرب الولد . . هرب الولد إلى أمه ضاحكاً وقال لها : بابا لا يعرف ما بين السماء والأرض قالت له : قل لي مـا الحل أعـطك تفاحـة قال الـولـد : **ولو** . . ! حـرف الواو . . . وأخذ تفاحة .

(حرف الواو هو حرف العطف الوحيد الذي لا تراخي بين معطوفه والمعطوف عليه) .

***

أنا هذه الأيام معجب بعدد من كتبنا التراثية التي تجمع بـين قبسات من شتى العلوم إلى اختيـارات أدبيـة جميلة إلى طرائف ومفارقات حياتيـة واجتماعيـة لطيفـة . وبين يـدي كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي الذي توفي سنة ٤١٤ هـ . وألف كتابه بدءاً من سنة **٣٧٣** إلى **٣٧٥** جامعاً فيه أحاديث سـامر بهـا الحسين بن أحمـد بن سعدان وزيـر صمصام الدولة البويهي . على مدى ثمان وثلاثين ليلة .

وتدل مادة الكتاب لا على مستوى المحدث فقط بل على مستوى الوزير الذي يتحدث إليه . . . هل كان حكام تلك العهـود ظلمـة ؟ كـانـوا . . ولكن **كانت** لهم أذواق وفي

حياتهم لمعات . . . وحكامنا اليوم لا عدل ولا ذوق . . .

من الفقرات الطريفة في الكتاب قرأت التالي :

« قال : وسمعت آخر يقول لشاطر : أسكت فإن نهراً جرى فيه الماء لا بد أن يعود إليه فقال له الآخر : حتى يعود إليه الماء تكون قد ماتت ضفادعه »

« وكتب مجنون إلى مجنون مثله : وهب الله لي جميع المكاره فيك ، كتابي إليك من الكوفة حقاً حقاً حقاً ، أقلامي تخط والموت عندنا كثير إلا أنه سليم والحمد لله ، أحببت ليعرفه إعلامكم ذلك إن شاء الله » .

« قال ابن سيرين : كانوا يعشقون من غير ريبة فكان لا يستنكر من الرجل يجيء فيحدث أهل البيت ثم يذهب » .

***

كثيرون يدخلون معي في حوار مفترضين أني في موقع القيادة وهم في القاعدة . قبل أن يبلغ الحوار منتصفه تتغير نظرتهم . لم أدرك فائدة ذلك ، إلا عندما شعرت بطمأنينة بالغة ، لم أدر مصدرها أثناء تجوالي في بيروت على قدمي في عز الحر وتحت المطر وفي أوقات كان الأمن فيها عزيزاً .

في شارع الحمراء لفت نظر أحدهم فأشفق علي وأوقف

سيارته وطلب إلي الصعود إلى جانبه . . بعد السلام سألني من أكون ؟ قلت له اسمي واسم قريتي . . . لم يتوقف عند إسمي ، لم يثر لديه أي ذكرى ، وأنا كذلك ، اسمي لا يثير لدي أي ذكرى ، وعلّق . جبشيت . . . إتشرفنا .

إنها معادلة جديدة وجميلة وعادلة

القبول بها يمنحك فرحاً . والمكابرة تورث ضيقاً وغماً لا شفاء له . . . جبشيت مضْاف إليه وأنا مضاف

تشرفنا أيتها المعرفة الممتلئة . . تشرفنا أيتها الساطعة . تحية لراغب وبلال .

***

أنا أكتب وأنشر . . أمي لا تقرأ ولا تكتب ، يقولون لها إني أنشر كثيراً . . وهي تعيد تصورها واحتمالها : كم أصبحت ثروتي ؟ وتعد نفسها بوضع حدٍ لمتاعبها . . وعندما تلتقي وتشاهدني أحسب « الخردة أو الفراطة أو الفكة - حسب اللهجات المختلفة » . . وبدقة مفرطة . . تبلع ريقها وتقول : يا ضيعان تعبي !

ينقل أبو حيان التوحيدي : « كان أبو سليمان المنطقي السجستاني وهو من هو في علو كعبه في العلم والفلسفة والحكمة بحاجة ماسة إلى رغيف وحوله وقوّته قد عجزا عن

أجرة مسكنه ووجبة غذائـه وعشائـه » . و« كان أبـو سعيد السيرافي يعمل في الوراقة ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش » و« كان سيد الفلاسفة يحي بن عدي يكتب في اليـوم والليلة مائـة ورقة وأكـثر » ـ أي ينسخ بـأجـرة ـ والمعافى بن زكريـا النهرواني كـان ذا « أنسة بسـائر العلوم » شاهده التوحيدي في جامع الرصافة وقد نام مستدبر الشمس في يوم شاتٍ ، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عـظيم ، مع غزارة علمه واتساع أدبه وفضله المشهور . والتوحيدي أضناه الفقر والفاقة فكتب إلى صديقـه العالم أبي الـوفاء المهنـدس مستجيراً « خلصني أيها الرجل من التكفف أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اشترني بالإحسان ، اعتبدني بالشكر ، استعمل لساني بفنون المدح ، أكفني مؤ ونة الغداء والعشـاء ، إلى متى الكسيرة اليـابسة ، والبقيلة الـذاوية ، والقميص المرقع ، . إلى متى التأدم بالخبز والزيتـون . . قد أذلني السفـر من بلد إلى بلد وخـذلني الـوقـوف عـلى بـاب باب » . . . الحمد لله على الستر والعافية . . .

***

أشعر بالإمتلاء والدهشـة والحيرة عنـدما يهـاتفني أحد بتهيب جم ، ويسألني عما إذا كنت مستعـداً لاستقبالـه . . يأتي يكرر الإعتذار لما يأخذه من وقتي ـ الثمين ـ ولا أجامله

لأني لا أشعر أنه أخذ شيئاً نتحادث طويلاً . تنحل عقدته في الدقائق الأولى ، عندما تواتيني أول نكتة ولا أستطيع تفويتها . ويندمج في الجو أكثر عندما أعرض عليه الطعام . فيسألني : ومن يطبخ لك وأنت وحدك ؟ وأشرح له باسهاب كيف أطبخ وأغسل الأواني وأرض الحمام وثيابي وأكنس المطبخ يومياً . . . يسألني وكيف تجد وقتاً للكتابة والقراءة ؟ وأرى علامات الدهشة على وجهه عندما أؤكد له أن الوقت يبقى فائضاً . . . قبل أن يخرج ألاحظ أنه لم يعد يشعر بأي خطر مني أو علي . . أؤكد له الأول وأشكره على الثاني . . أودعه بغبطه وأدخل المطبخ فوراً وأبدأ بإعداد وجبة العشاء بهمة عالية . . . أشعر أني ـ أثناء العمل أكتب قصيدة . . أنا أوصي ربات المنزل أن يتمسكن بعملهن . . ولا يصغين لدعوة تحرير المرأة . . . حفاظاً على أعصابهن وتماسكهن



أنصح الآباء الخاطئين أو الذين تحدثهم نفسهم بالخطيئة ، ويدركون جيداً مضارها وينفرون منها في لحظات اليقظة . . أن يكثروا من وعظ أبنائهم والتشديد عليهم وشرح مساوىء الخطايا لهم بتكرار وإسهاب وعصبية وأنا الكفيل بتجنبهم (أي الآباء) ما يخافونه من خطايا ولا يستطيعون مقاومتها .

شكراً . . يا بني ، يا أبي ، سأبقى مديناً لحيائي منك .

***

من مروج الذهب للمسعودي :

« ومن عماله (أي عمر) على المدائن سلمان الفارسي وكان يلبس الصوف ويركب الحمار العاري ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير وكان ناسكاً زاهداً فلما احتضر بالمدائن كان إلى جانبه سعد بن أبي وقاص وبكى سلمان فقال سعد يا أبا عبدالله ما يبكيك ، قال : سمعت رسول الله « ص »: « إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون » وأرى هذه الأساورة حولي ، فنظروا فلم يجدوا إلا إداوة وركوة ومطهرة » .

ويقول الجاحظ :

« دخلت على محمد بن إسحاق أمير مكة أيام ولايته وهو جالس في الديوان والناس مُثُل بين يديه كأن على رؤوسهم الطير ، ثم دخلت إليه بعد مدة وهو معزول وهو جالس في خزانة كتبه وحواليه الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر فما رأيت أهيب منه على تلك الحال » .

***

آخر الليل عندما أفرغ من كتابة شيء يعجبني ،

يعتريني إحساس كإحساس دجاجة قد باضت لتوها كما أشعر بحاجة إلى مكافأة أفكر بالوقوف على حافة المنضدة.**لأقاقي** » أخـاف من زوجتي وأصرف النـظر وأكافىء نفسي بسيجـارة وكوب من الشاي البارد .

***

أيلول ١٩٨٥

آباء بنون
وبنون آباء (*)

قالوا : استشهد
« رأى ناراً فقال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً » .
قلت : وصل
قالوا : على الطريق . . . ما وصل
قلت : وصل .

جاوز حد الترخص ، قطع المسافة . . غابت الدنيا عن عينيه ، توارت ، غابت عيناه عن حيطانها ومنازلها ، خفيت أصواتها .

وصل ، حل عقدة زوادته ؛ تناول خوخاً ورماناً وعسلاً وماء سلسبيلاً ، أكل مريئاً وشرب هنيئاً . . و« نعم عقبي الدار » .

(*) القيت في الإحتفال التأبيني للشهيد بلال قبيسي الذي استشهد في طريقه الى موقع يهودي قرب نهر الليطاني في إحدى ليالي آذار ١٩٨٦ .

يا بلال . . هل لك بكلمةٍ منا ؟ . لا ، وعداك ذم ، لا تسمعنها . تعيا بها الريح التي تنقلُ » .

يا بلال وهل لنا بكأس مما تعاقر من « بيضاء لذة للشاربين، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » .

إنا لمغبوتون يا أخانا . . نازفون منزوفون . . مغبونون ما لزمتنا حرفة الكلام واستوت أيامنا كلاماً .

وأنت ، ما استوى يوماك . . من القرآن إلى الجنان . . . أمسيت وعداً وأصبحت نهراً .

والكلام الكلام ، الكلام ، كما قرأ وعلمت « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » .

وآه الظما أيها الريَّان ! . . . أيها العزيز ، يا بلال . . مسَّنا الشوق ، أخبرنا من تلقاك ؟ من عانقت ؟ « قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » ؟ بالرفاه والبنين . . يا عريس . . . يا عُرس . . .

وما عاينت . . ما شاهدت ؟ . . . « يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » .
« وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » .

ومن عاينت ؟ . . قل للشيخ راغب حرب : ما زال

الموقف سلاحاً . . قل له التأم جرح عباءته فهل التأمت جراحه ؟ وهل تلتئم كربلاء إلا بمزيد من الجراح ؟

قل لأبي عبدالله : لن نبالي ما دمنا على الحق ، وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا .

يا بلال وماذا عانيت ؟ « « شوق الجنين إذا اشرأب من الظلام إلى الولادة » ؟ « إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون ! » .

يا وجعاً ولا أبهى :
« ولثمتُ جرحك في فتحة هي المصحف الطهر إذ يُلثمُ »

يا بلال وماذا قالت آخر نبضة في القلب ؟ وماذا كان ختام الكلام ؟ آخر الكلام ، أول الكلام : أشهد أن لا إله إلا الله .

آخر ما يرى المسافر الذي كابد شوق الوصول . . يصل حين لا يصل . . نقطة النهاية ، الوصول ، في المسافة الحلم ، أو الحلم المسافة .

***

وكان صوت بلال رخيماً . . ومؤذن الأقصى ، نؤوم

الضحى . . ينام عن الأذان يؤذن الفجر ظهراً ، يصوم وصالاً ، ويفطر على حرام . يقرأ القرآن ويعمل بالإنجيل ويعشق التوراة . و« الصيف ضيَّعت اللبن » .

وبلال حريص على مواعيد الصلاة . . . صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين

بلال حريص على قرآن الفجر « إن قرآن الفجر كان مشهوداً »

ذهب بلال ليؤذن الفجر ويبلغ المؤذن الرسمي أن « المستأجرة ليست كالثكلى » .

أدركه الفجر قبل أن يصل . . أخذته إغفاءة ناعمة ، نام على فرح الوصول . في الصباح كان بلال صلاة . . وكانت منارة الأقصى تطلع من عينيه . عندما يصبح المسكون ساكناً ويصبح الدم سكناً ، تأتي الأرض ، كل الأرض إليك . . تصلك وإن لم تصلها . . . أولئك الذين يريدون الأرض سكناً . . لا تسكنهم الأرض ولن يسكنوها . . . إن لم تسكنك الأرض فكيف تسكنها؟

ألم يحطم الأعرابي صنمه عندما غضب ؟ ألم يأكل الأعرابي صنمه عندما جاع ؟ يا أيها الأعراب . . . هذا بلال خرج من بيت أبيه ليلاً ، وأعد الأطفال بساعة من قرآن

كريم مرتل . . . . لم يعد بلال إلى بيت أبيه . عاد إلى قلب الأمة وبيت التاريخ . . . فهلّا اقتفيتم أثره ؟. أقول لكم : طالما أن الدم طريق إلى النفط فالدم مسفوح والنفط غور والأرض يباب . . .

لا . . . لا ولا قرّت أعينكم . عندما يشارف نفطكم أن يغور ودمكم أن يفسد . . . . يمسي ولا نخوة . . سوف نشهر دمنا ، لقد أشهرناه . ها هو : من الفاو إلى كابل ، إلى بيت ياحون إلى غزة وخليل الرحمن ها هو دمنا ساطع ناصع واعد . . مؤذن بأفول وبزوغ . . . أفول نجمكم وذهاب ريحكم . . بزوغ فجرنا وهبوب رياحنا اللواقح ، تنقل تراتيله وألمه الأخير ، إلى عناقيد وأزاهير وقطوف وسنابل تنتظر اللقاح لتجود عزاً و حرية وسلاماً وصلاة ونجاوى . .

« وإنتظروا إنا معكم منتظرون »

***

يا بلال . . وأتملّاك .

تأخذني عيناك إلى تواضع النرجس وشموخ الحور

إلى متانة الأسس وارتفاع المآذن ، إلى بعد الزمان بكربلاء والحضور اليومي للشهداء . . . إلى أحزان زينب وفرحها الغامر وهي تستعرض هذا الرعيل المتنامي من

الزينبات .

وأمد الطرف وقلبي إلى هذه الوجوه الأليفة والعيون التي يخالطها النعاس ويخامرها الوسن لطول ما سهرت واختزنت وعوداً أمنيات . . . وآنف ، أشفق أن أوقظها بالشعر أو أمسحها بالعطر وأستعيدك . . . ربما أكون قد رأيتك وما حفلت . . . هكذا الطيبون الفاعلون يطأوون الأرض خفافاً وإلافاً . . . ربما أكون قد رأيتك وحسبتك عائداً لتوك من مطاردة الحساسين والفراشات في حقل العدس ـ هذا زمن يكبر فيه صغار ويصغر فيه كبار ـ . ربما أكون قد رأيتك وما توقعت أن تقوى لك سبابة على ضغطة زناد . . وهل يُصنع العسلُ من دوي النحل ؟ ولاقدم على الجوس في ليل بهيم ، ولا قامة على معاقرة الوهاد ومكابرة الصخور ومعالجة الأشواك والألغام ، ولا عين على استكشاف البعيد البعيد . . . ولا قلب على ركوب الأهوال ، ولا أذن على الطرب بإيقاع الرصاص ، ولا أنف على شميم البارود . . .

وتنفجر . . . على غير انتظار مني . . كفجاءة . . . تأخذ علي القلب والفكر تتملكني فأستعير لدمك كلاماً يطاوله ولا يطاله ، ولوجهك شمساً تحاوله ولا تبلغه ، ولأناملك يراعاً لا يجرح ولقبرك ورداً لا يذبل . . . فإذا دمك الكلام الذي لا ينتهي ، ووجهك الشمس ويداك

شارتنا نصر وعلامتنا عبور ، ومياه الليطاني تكف عن جريانها ، تسكن ، تنتظرك لتعبر . . . تعبر أنت وتجري ، وأنا لا أملك بك لحاقاً ، فماذا أصنع ؟

وقبرك . . . يا لقبرك يطلع منه ورد كلما تماثلت وردة في حوضنا للذنوب والذبول أيقظها على خطر اليهود والمتهودين وموعد التحرير !

***

وأمد طرفي ثانية ، فإذا الوجوه الأليفة وعود وعهود ورعود ونُذُر وأمطار مُنذِرة ، « وساء مطر المنذرين » .

وإذا النعاس والوسن أوليات برق وعارضٍ ممطرٍ !

يا أهله : طابت البطون والحجور . . وشمخت الأصلاب وطهرت الأرحام تبارك الخبز الذي خبزتم وأكلتم وأطعمتم والحليب الذي أرضعتم .

ومبارك ، مبارك الأب الإبن والإبن الأب .

مبارك الأب الذي تكون الأمة ، كل الأمة ، لقلبه عوضاً عن فلذة . . « يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له » :

مبارك الإبن الذي يعود لأبيه أباً . يمضي في طاعة أبيه حتى يطاوع أباه قلبه فيفرح بالفراق فرحه باللقاء ، يفرح

بالوداع فرحه بالزفاف ، يفرح باللحد فرحه ببيت من حجر أبيض كان عازماً أن يبنيه لابنه قبيل الزواج . . ويفرح بالصورة مجللة بالسواد والشهادة فرحه بالحفيد . ويا إخوته . . ورفاقه ، نعمت الرفقة . . لو كان لنا ما أنتم فيه من ود وألفة وإيلاف ونفير ووضوح ، أيام فتوتنا ، وتقابل كتقابلكم ، على سرر في الدنيا والآخرة ، لكنا أسعد حالاً وأوثق آما وأضمن مآلاً .

عزاؤنا فيما اعترى عمرنا من نقص ما تضيفون إلى ما تبقى من مجد وحب وصلاة وشهادة .

ويا قائد الأمة . . يا شيخ الشيوخ ويا فتى الفتيان ، بوركت من فاتح مفتتح لهذا العصر من الأمجاد .

ليهنك يا رسول الله دمنا ولتقرَّ عينك بأعيننا الواهة إلى لقياك .

أكتب
ما يحلو لي

■ لنتحدث أولاً عن المرتكزات الأساسية التي بنيت عليها مسيرتك الفكرية والثقافية ، وعن المحطات الرئيسية في هذه المسيرة .

□ من أين آتيك بالمرتكزات ، وأنا ليس لدي بناء لاستحضر مرتكزاته؟ ليس لي خط بياني صاعد أو نازل لأحدد مساره ومؤشراته أو تاريخه . لا أدري من أين أتيت . أذكر أن أمي كانت تضربني ، إذا ما اتسخ قميصي الوحيد . ما زلت أخاف من ذلك . وأعوض عنه بالانشراح لمرأى ثياب الفلاحين يعتريها الوسخ الودود . وتأسرني رائحة العرق تفوح من أهاب مقاتل ، مضى عليه

مقابلة أجراها الأستاذ علي عجمي الأول ونشرت في مجلة الكفاح العربي العدد ٣٩٠ كانون ١٩٨٥

شهر دون أن يغتسل . كما تنعشني رائحة العطر الشرقي من كهل اغتسل صباح الجمعة ، وارتدى أنظف قمصانه استعداداً للصلاة ، بعدما امتنع عن أكل الثوم والبصل ليلاً .

يقول رسول الله « ص » : حبب إلي من دنياكم ثلاث ، الطيب والمرأة وقرة عيني الصلاة .

من هذا التناغم بين احتمالات الخصب والجمال غير المشروط والتسامي . من هذا التوحد التوحيدي ، ربما أكون قد أتيت ، من الفطرة

وعندما حاولت أن أدهن رأسي بزيت الشعر الرخيص صباح يوم من أيام عاشوراء ، قالت أمي : هذا عيب مكروه شرعاً . كان شيء خارج الحسبان يقتحم اللوحة . بدا لي وكأنه ينافيها . من يومها أصبحت مهتماً باكتشاف وحدة الفرح والحزن واثباتها .

عندما يعتريني وهم الامتياز ، وتراودني أحلام الإنفصال النخبوي ، أشعر بالتصحر ، فأتوسد ذراع أمي وأحلم بالمطر وأغني :

يا أم الغيث غيثينا
تاملي سواقينا

نسقي زرعنا العطشان

ونروي بوش راعينا

وأمضي ، أمضي أبحث عن تنكة وعود زنزلخت فلا أجد . أطرق بالقلم جلد كتيب مترجم من شعر « التروبادور » . لم أقرأ شعر الراعي النميري حتى الآن ، لم أجد ديوانه ، لم أجد أثراً لشعره عند أنسي الحاج . أوقظ أطفالي من نومهم وأرفع عقيرتي بالنداء :

دشر قمرنا يا حوت

أحسن « ما نفقع » ونموت

وعندما يستغرب أطفالي ، القنهم درساً . أحكي لهم ذكرياتي . لا يصدقون أني ذهبت إلى بيروت مرة في الشتاء بقميص ولباس قصير من « الخام » وقبقاب . وأني اشتريت كتاب « لقاء » لميخائيل نعيمة، بدل « القدوم » الذي كلفني أبي بشرائه . وأكلت العقاب . وأني ذهبت إلى النجف دون أن أعرف ما هي ، وماذا ومن فيها . لم أكن ابن أسرة علمية ، ولم يكن في أقاربي من له اهتمام علمي .

ومن الذكريات الحميمة التي تراودك ؟

□ كان لي ترب وهو علي ، لا يمشط شعره ، ويعتني باختيار لغته ، اتبادل و إياه الأحلام ، ولا يأتينا إلا استحالات . ذهبنا إلى مواضيع الإنشاء . وكان المعلمون معلمين قبل ارتفاع الدولار ، والمضاربات العقارية والوطنية . كان المعلم يجد ذاته في عمله وتلميذه . ظل المعلمون يمدحونني حتى بدأت أدخن . وذهبت إلى المسجد . قال لي الحاج سعيد : يجب أن تذهب إلى النجف ، فذهبت نباتاً برياً .

من توقع ما ، من احتمال ما رعوي ومرهف ، حاول السيد محمد حسين فضل الله أن يدجنني ، ولا يزال . كنت أستغرق في حنوه ، ولا ألبث أن ازداد توتراً وشعوراً بالوحشة ، وحاجة إلى الاستقالة والعودة إلى حقل الذرة .

وجدت في السيد محمد حسن الأمين فسحة . تنسمت وإياه هواء صافياً وأليفاً ، فتح بعضاً من شراييني . كان استمراراً لمشروع تحقق وصار له تاريخه . وكان مطمئناً ، يقلق إذا شاء ثم يكف إذا شاء . وكنت مشروعاً مغامراً يصطنع تاريخه بحساسية مفرطة ، وما زلت .

الشيخ علي الزين . كان يأتي صباحاً إلى قبالة بيتنا وينادِيني ، اقرأ له موضوعات الإنشاء ، ويصغي كما لو كان

أستاذاً يشرف على رسالة جامعية لتلميذ من ذوي رحمه . أغراني بالحداثة دون أن يزهدني بالأصالة . فحملني بذرة العناء . أعطاني ديوان سليمان العيسى.« أعاصير في السلاسل » . لم أفهم منه شيئاً . ولم أرده له حتى الآن .

وإليك قصتي في النجف :

في النجف يا رعاك الله ، ذهبت في قراءاتي طولاً وعرضاً دون نظام . من قصص الأنبياء ، إلى دوامة « سارتر » ، الى ورطة « توفيق الحكيم » ، إلى «الآن روب غرييه » والحاحه في متابعة الجزئيات في الزمان والمكان والحدث ، إلى الفقه والأصول وبلاغة « السعد » و« السكاكي » و« قدامة » ، إلى أوليات الفجر مع القرآن ، إلى حلم عميق ولكنه بلا لون . وأنني أتساءل :

هل هذه مرتكزات ؟ لا أظن .

والآن ، ليس لدي نقطة أريد الوصول إليها . إني أبحث عما وعمن يوصلني إلى الطمأنينة . وفي تقديري أن القرآن وحده هو الذي يمكن أن يعيد دمجي في البحر وفي تكاوين الوجود . لكن الوضع الأمني والسياسي وأشياء أخرى ، تجعل على قلبي قفلاً ، فأهرب إلى عجائز ضيعتي . أحاول خلال الحوار معهن استعادة لياقتي

القرآنية . إني فلاح قديم ، بلا استطالات طبقية فارغـة . أكتب مـا يحلو لي عندمـا يحلو لي كيفما يحلو لي . وبصـرف النـظر عن المحصول . وإذا مـا أمحلت أرضي ، لا أبيعهـا لأفتح بثمنها دكاناً لأشرطة الفيديو أو الهمبرغر .

إني فـلاح قـديم يـا صـديقي لا يمـل الحـديث عن أرضه ، عن لون عينيهـا وعدد حجـارتها ومـواعيد بـزوغ العشب فيها والسجال بـين العشب وبين الـزرع ، وكيف تغلب الجعفيل مرة على حقل العـدس ، كما تغلب اليهـود على الجنوب . . جبشيت هي الأرض التي ورثتها عن أبي . وأنـا مشغول بتفـاصيلها . أمـا الشيخ راغب حـرب فهـو الغيمة التي أمطرت بعد صلاة الاستسقاء ظهر يـوم لم يكن فيه وعد بنـدى ،،صاف مثـل وباء .ثم أمـطرت ، أمطرت غيمته وانتصر العباس ساقي العطاش .

عبـر النهر وأغـراني بالفـرح حتى آخر الجسـر . لقـد ابتعد ، ولا أدري كيف أذهب إليه . من أين أذهب إليه ؟ لو سألته عن السر لهان الأمر . كم كنت كسولاً . وكم كان بإمكاني أن أستريح من القراءة والكتابة والسياسة والحداثة وهموم الإيصال والتوصيل والشكل والمضمون والشكل بلا مضمون والمضمون بلا شكل . لو يعود اليهود ثانية فالتقي مع شيخي صحيح أن اليهود على مرمى عيني رغم ضعف

بصري . ولكني لا أذهب . لو يأتون .

إني استدعيه . كلما حاولت أن أتجلى . يأتي ويتجلى وأحزن . أحزن حتى آخر الجسر حتى آخر الجسد .

أحب الإمام الخميني لأن أحلامي ماضوية . لدي حنين إلى ماض كان يبدو لي جميلاً ومستحيلاً . الخميني أكد لي أنه جميل وصعب وممكن . وإذا كان المستقبل لا يحمل لي إلا المزيد من مخاطر التوزع والتفتت فأنا معذور ، وملزم بالبحث عن توحدي في الماضي . إني استدعيه حتى لا أتلاشى . واللحظة الراهنة ، الحداثة ، الغد ، لم تعد إشكالات . أنا هنا الآن في هذا الزمن . ولكن المكان يغادرنا ، والعمق يقترب من السطح . أين نقف ؟ أنا مشغول بالبحث عن المكان . ولا مكان بلا مكين . واعرف زماني معرفة تفصيلية . فما ذنبي ؟ أيّ مخالفة ارتكبت ؟

آمنت يوماً بإمكان قلق وجودي . ولكني الآن قلق على وجودي . إلى هنا انتهت بنا الحداثة . ولا يسعني ولا ينقذني إلا أن أتوازن . أن أقطع مع الغرب . ثم أبدأ الحوار .

وأن تبدأ الحوار من نقطة أخرى ، ما قبل القطع أو دونه ، فإن ذلك يقتضيك أن تمتلىء شعوراً بغلبة الآخر غير الجدير بالغلبة . لأنه يذوي على عوده ويسقط ويرجوك أن

تتلقاه بحنان ورحمة . وأنت عندك ما تستمسك به لتتوحد تقف وتمشي .

وأن تتماهى مع الآخر ، يعني عملياً أن تتخلى عن إحساسك بالجدارة والمسؤولية . عندئذ لا تتماهى ولن تتماهى . أنك تلتصق . تصبح إضافة كمية إلى مقتنيات الآخر . ألا يفسر هذا ما نسميه انحساراً للثقافة العربية الحديثة ؟

أنه فقدان للمصداقية .

■ حال الغياب أو التغريب أو الاغتراب الثقافي التي نغرق فيها كيف يمكن مواجهتها ؟

□ الغياب انفصال . والتغريب خروج من العام . والاغتراب نفي للذات . هذا يأتي من ثقافة انفصالية خارجية نافية تجزيئية . أنا مسلم موحد . الإسلام توحيدي . الديانات الأخرى توحيدية . والحضارات عامة فيها لحظة توحيد ما . ولكن هذه الديانات تعرضت لعدوانات قاسية ، حالت بين توحيديتها وبين الامتداد المنهجي إلى حركة الفكر والمجتمع والتاريخ . تحولت في المتداول من موروثها الى ديانات تعددية انفصالية . بينما التوحيد في الإسلام ، باعتباره التمام والكمال والنهاية

والمشروع الأخير ، توافرت له حمايات فكرية عامة وتشريعية ، حفظته وحفظت له معادله الموضوعي ـ الوحدة ـ ومنهجه الوحدوي . وكانت النتيجة أن التجزئة قد اصبحت استقطاب الديانات والحضارات الأخرى . جاهلية . وظلت الوحدة ، ذاتاً وموضوعاً ، استقطاب الإسلام . وما نشاهده من تجزئة عند العرض التاريخي للشأن الإسلامي هو عارض ، وإن تكثرت مظاهره وتعبيراته . بينما في الحالات الأخرى ، تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً ، ليس هناك سوى التجزئة وثقافة التجزئة . والتجزئة اعتداء على النظام الكوني الذي تنوعاته تؤكد وحدته ، وتقتضيها هذه الوحدة بدورها كضرورة حركة وخلق وابداع .

أنا أرى اننا عائدون إلى ذواتنا، وأننا مؤهلون لحمل الضوء إلى الآخر ، لندله على ذاته ، من خلال التوحيد ، الذي هو مشروع حضورنا الوحيد . خارج التوحيد وثقافة التوحيد الذي يكتمل بالعدل والإخلاص ، لا أمل . على أن ثقافة التوحيد ليست إغراء بالكسل والسهولة والسطحية . انها أعمق الثقافات وأصعبها وأجملها . وتحتاج الى كثير من التقوى حتى تستوي على أصولها ، وتشارف

اكتمالها الذي شارفته أكثر من مرة عبر التاريخ ، وبلغته في القرآن ، المثال الرباني الذي يحرضنا كل يوم على احتذائه ، مـع هـامش عـريض عـريض لانسـانيتنـا وخصـوصيـاتنـا البشرية .

■ يبـدو جلياً أن هـوّة كبيرة بـدأت تقف بـين القـارىء والنص ، وتزداد اتساعاً مع الزمن . كيف يمكن ردمها ؟

□ أنها مسؤوليــة النص ومسؤوليـة القــارىء معــاً . القارىء كسلان . يأتي من فراغـه . بعد الـظهر ، مـرهقاً بيومياتـه السياسيـة ، إلى النص. فلا يـراه جاهـزاً سهلاً كرغيف خبز ، فيعافه . لا يأتي إليه من لغة ، من ذاكرة ، من سياق ذهني جدير . والنص في الأعم الأغلب لا يأتي إلى القارىء من خارطة همومه ، من شأنه . أنه نص مستعار . لا أريـد أن أجلد أحـداً . ولكني قلق ممن يلتقـطون هـذه المفارقة بين النص والقارىء ، فيقدمون نصاً مبتذلاً ركيكاً يسمـونه سهـلاً وواضحاً ، ولكنـه مراوغ يغـري القارىء بمزيد من الكسل .

لا يمكن أبـداً استعـادة النص المقــروء دون استعـادة القارىء . لا بد من استعـادتهما معـاً . هذا شـأن يبدأ من المدرسة الابتدائية حتى يصل إلى الجامعة ويمر بـالصحيفة ،

بصفحاتها السياسية والثقافية معاً . ويقف ملياً عند الخطاب السياسي الذي أصبح خطراً على أشواق القارىء وطموحات الكاتب .

■ ازاء حال النهوض الشعبية التي عاشها الجنوب في زمن المقاومة ، هل استطاعت الثقافة مواكبتها ؟

□ الثقافة والأدب ، خاصة في حال عدم التوقع ، والاستغراب والدهشة التي تأتي من الغربة والانفصال ، ليس بمقدورهما أن يواكبا الحدث ، حتى العادي . فكيف إذا ما كان بهذا المقدار الحضاري ؟ أنهما يطاولانه ، يمسكان بملمح من هنا أو ملمح من هناك ، يصفقان . هذا ليس عيباً . لأن الأدب أبطأ وتيرة من الواقع وأحداثه ، وأقل طواعية من انعطافات التاريخ . يجب أن ننتظر ونحذر من محاولات ، يبدو أنها محتملة ، لقطع الحدث عن عمقه الحضاري ، عن مصدره ودلائله ، ومصادرته . عندئذ ، سوف تكون لدينا أعمال أدبية وثقافية تدمج الأحداث في غير سياقها . من هنا فأني أنصح بالتسجيل ، تسجيل ما حدث ، وبالعناية بالتفاصيل والجزئيات . لأنها هي التي تختزن الدلائل الحقيقية ، انتظاراً للآتي .

■ كيف تقوم شعراء الجنوب ؟

□ عشت أياماً حلوة معهم ، عندما كانوا مشروعات . أما وقد وصلوا ، أو ظنوا ذلك ، فإن متابعاتي لهم أصبحت منقطعة . هم لم يعودوا بحاجة إلى متابعتي . لم يبق في ذاكرتي منهم ألا: نتف جميلة تحكي طموح البدايات ، بكل صفائها وبحثها الدائب عن لغة تصل ولا تسقط .

■وبالنسبة إلى التجارب الشعرية العربية الراسخة . لنتكلم عن أدونيس ؟

□ قرأته قبل الثمانينات . ما زالت اشاراته التي أحسنت التقاطها ، تضيء لي حيزاً ما وتضيء في زاوية ما . ولكن الجدل حوله كثير . لعله يحب أن يكون في دائرة الجدل . ألاحظ خلال أخباره أنه ينعم باحساس بعالمية ربما كانت هاجسه وبلغها خلال الجدل الذي أحدثه ومن هنا أخاف من الاستحقاقات التي سوف تترتب وأدرجه في قائمة العروي والطاهر بن جلون وأركون وبن توميش وبن شيخ وغيرهم . لا . لا أخاف . هم أولى بالخوف .

■محمد الماغوط .

□ أني أتذكره متقطعاً كما أتذكر مفارقات طفولتي ليس إلا . هؤلاء الذين يتمتعون بمثل هذه الدرجةمن الحساسية

والمهارة في الصيد ، لماذا يبعثرون طاقاتهم هكذا ؟ يبقون وعوداً بمطر أسود . يحزنون ولا يفرحون . حسن . ولكن لماذا يتحول الحزن إلى دائرة مغلقة . . إلى استهلاك ؟ أتمنى أن أكون مخطئاً . .

■ الجيل العراقي السابق .

□ مات السياب ، وبقي عبد الوهاب البياتي . هاجر مصطفى جمال الدين ، وبقي عبد الرزاق عبد الواحد .

مات الشعر ، مات النخل لا يعرف السياب إلا من يعرف جيكور وبويب وأبو الخصيب ، ويجلس غريباً على الخليج يصغي لأنشودة المطر . إلا ساء مطر المنذرين .

■ صلاح عبد الصبور .

□ تأخر كثيراً عن موعد موته . من يقرأ شعره في الخمسينات يتعجب كيف ظل حياً حتى أوائل الثمانينات . كان مركباً محملاً بالأحزان والأوجاع واليأس والسأم ، يمخر عباب الجسد ، حتى ضاق عنه الجسد . فاستظل عباءة الحلاج . ولكنه مات على فراشه في لحظة واحدة أقصر من لحظة موت زهران . مات متهماً بالسلطان . اتهمه بالسلطان ، الذين صار السلطان متّهماً بهم . وهذا فرق كبير .

■ ما علاقتك بالنشر ودور النشر ؟

□ علاقتي مع النشـر ليست من التعقيد بحيث تصلح للحكاية . ولكني أرى أزمة قاتلة مقبلة علينـا . لقد طغى النفط ، وبلل الكتاب ، واحترقت أصابع الكاتب ، وعلى الله الخلاص .

ادفع ، تطبع ، وإلا فهناك التراث المزين للزينة ، بلا حقـوق طبع ولا دلـع مؤلفـين ، ووراءه الملايـين . وإلى جهنم ، بالكاتب والكتابة والكتـاب والقارىء المسكـين .. عندما أدخل دور النشر حاملاً أوراقي ، أحسّ وكأني امرأة غرر بها فولدت وحملت لقيطها تعرضه على من يتبناه .

لنكف عن أحلامنا . كنت أحلم منذ طفولتي بأن ألد خمسين كتاباً . وعندمـا شعرت أن أولادي سينغصـون علي هـذا الحلم ، حددت نسـلي لأتفرغ للكتـابة . أمـا الآن ، فسأحاول أن أنجب عشرة أولاد ، وكتاباً آخر ، هو كتاب استقالتي من آلام الدفاتر .

■ سؤال أخـير ، كيف تقوّم الصفحـات الثقـافيـة في الصحف اللبنانية ؟

□ منـذ مدة طـويلة وأنـا منقـطع عنهـا إلا في حـدود

يسيرة . ما زال بعض الصفحات ، هنا أو هناك ، في زمن أو أخر ، تحفل ببعض ما يشيع رضىً في النفس وإحساساً بالامتلاء . .

وفي الأعم الأغلب ، في حدود ما رأيت ، أصبحت الصفحات الثقافية امتداداً لحال الكسل والممالأة لمجريات السياسة بكل قسوتها وبذاءاتها . لحظات الإشراق فيها ، هي اللحظات التي تكسر الطوق عندما تحمل شارات المقاومة . ولكن هناك عتمات ومتاريس تترصدها . □□

كانون الأول ١٩٨٥

صدر للمؤلف

١ ـ مشروعات أسئلة ـ دار التوجيه الإسلامي ، ١٩٨٠ .
٢ ـ أوراق من دفتر الولد العاملي ـ دار الكلمة ، ١٩٨٠ .
٣ ـ تفاصيل القلب ـ مؤسسة الوفاء ، ١٩٨٥ .
٤ ـ نحو أدب إسلامي حقيقي (المسرح) ـ دار البلاغة ، ١٩٨٦ .
٥ ـ في الوحدة الإسلامية والتجزئة ـ المؤسسة الجامعية ، ١٩٨٦ .
٦ ـ التهويد الثقافي ـ دار الشهيد ـ طهران ، ١٩٨٦ .

تحت الطبع

١ ـ مقالات في المنهج ـ المؤسسة الجامعية .
٢ ـ مساهمات في الخطاب السياسي الإسلامي .

الفهرس